الأسئلة المحظورة

التأزم الفكري

في واقعنا الإسلامي المعاصر

أ. د. عبد الكريم بكار

حاوره

أ. علاء الدين آل رشي

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

الأسئلة المحظورة

التأزم الفكري
في
واقعنا الإسلامي المعاصر

تأليف
أ. د. عبد الكريم بكار

حاوره
أ. علاء الدين آل رشي

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

الطبعة الأولى

١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشئون الفنية

بكار ، عبد الكريم .

الأسئلة المحظورة : المأزم الفكري في واقعنا الإسلامي المعاصر / تأليف عبد الكريم بكار ؛ حاوره علاء الدين آل رشي . - ط ١ . - القاهرة : دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، ٢٠١٠ .

١٥٢ ص ؛ ٢٠ سم .

تدمك ٤ ٨٨٨ ٣٤٢ ٩٧٧ ٩٧٨

١ - الثقافة الإسلامية .

أ - آل رشي ، علاء الدين (محاور) .

ب - العنوان .

٢١٤

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م عن عشر جوائز حصلتها الدار [illegible] في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية

الإدارة : القاهرة : ١٩ شارع عمر لطفي موازٍ لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران عند الحديقة الدولية وأمام مسجد الشهيد عمرو الشربيني - مدينة نصر
هاتف : ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٠٠٢٠٢) فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٠٠٢٠٢)

المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٠٠٢٠٢)

المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٠٠٢٠٢)

المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٠٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٠٠٢٠٣)

بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩

البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com

موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس الأسئلة الإطارية

• • •

السؤال الأول

لدى كثير من المسلمين شعور بالدونية والضعف، وهذا كثيرًا ما يحدث لديهم بسبب مقارنتهم لأحوالهم وأوضاعهم العامة بما لدى العالم الصناعي - ولا سيما الغربي منه - من تقدم وازدهار. فهل نحن على صواب حين نجري المقارنات مع غيرنا، أو الأَوْلى أن ننكفئ على أنفسنا انطلاقًا من خصوصيتنا الثقافية، وفرادتنا القيمية والثقافية؟

- نحن لا نجادل، ولا يصحُّ لنا أن نجادل بأن لنا خصوصيتنا العقدية والثقافية، وأنَّ لنا رؤيتنا الخاصة حيال الكثير من القضايا والمسائل الكبرى. وهذا ينبغي أن يظلَّ واضحًا على نحو أكيد من القضايا والمسائل الكبرى. لكن هل إجراؤنا للمقارنات هو شيء صحيح أو خاطئ؟

في اعتقادي أولًا أنك لا تستطيع أن تمنع الناس من أن يتوقفوا عن المقارنة؛ فالوعي البشري - بطبيعته - يستخدم المقارنة أداةً للفهم والاستيعاب. وهو كثيرًا ما يجد نفسه عاجزًا عن رؤية الأشياء على نحو مطلق؛ فقضايا مثل الفقر والغنى، والفوضى والتنظيم، والعلم والجهل، والوفاق والشقاق، والشورى والاستبداد... موجود شيء منها لدى كل الأمم، وعلى درجات متباينة. وحتى يعرف أبناء مجتمع من المجتمعات

مقدار ما لديهم من كل ذلك، وحتى يحددوا موقعهم في المشهد العالمي الحديث فإنهم يجدون أنفسهم مضطرين للقيام بما لا يحصى من المقارنات بين ما لديهم وما لدى غيرهم. ومن هنا قيل: « انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم ». فعلى المسلم حين يقارن في أمور الدنيا أن ينظر إلى من أوتي منها أقلَّ مما أوتي هو، وذلك حتى لا يحقر شيئًا من نعم الله عليه. أما في أمور الدين فعلى المسلم أن ينظر إلى من يتقدّم عليه في الهداية والطاعة والبر حتى يقتدي به، ويحاول محاذاته.

• قد تقول لي: إذن أين المشكلة؟

- تكمن المشكلة في المقارنات الخاطئة التي تتم هنا وهناك؛ فالخصوصية العقدية والثقافية يجب أن تكون هي المعيار الذي تجري من خلاله كل المقارنات داخل نطاق الأُمة وخارجه. إنه لا ينبغي للمؤمن أن يشعر بالحرمان إذا وجد أن عقيدته لا تتيح له التمتع ببعض المرفهات المغرقة في الإسراف والتبذير، أو لا تتيح له التمتع ببعض المحرمات التي يتخبط فيها أقوام ممن لا يؤمنون بالله واليوم الآخر.

حين دخل عمر بن الخطاب ﷺ على رسول الله ﷺ ووجد بيتًا خاليًا إلّا من قليل من المتاع، كما رأى الحصير وقد أثّر في جنبه، لم يكن منه إلا أن قال: يا رسول الله ادعُ

اللّه أن يوسّع على أمتك، فقد وسّع على فارس والروم وهم لا يعبدونه. فاستوى (عليه الصلاة والسلام) جالسًا، وقال: **«أفي شكٍّ أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عُجّلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا».**

ثم إن أولوياتنا في التنمية مختلفة عن أولويات الغرب والعالم الصناعي عامة؛ فالمحافظة على الحياة الأسرية عندنا لها أولوية على الترقي في منصب من المناصب أو الحصول على مكسب من المكاسب المادية؛ ولهذا فإنّ المرأة في الغرب قد تتخلّى عن حياتها الزوجية والأسرية إذا حصلت على منصب رفيع أو فرصة وظيفية ممتازة في بلد غير بلد إقامتها، لكن المرأة المسلمة لا تفعل ذلك.

أيضًا فإن دَرْءَ المفاسد الخُلُقية التي قد تترتب على بعض الأنشطة الاقتصادية مقدَّمٌ في رؤيتنا وفي ثقافتنا الإسلامية على ما يمكن أن يأتي من وراء تلك الأنشطة من منافعَ ماديةٍ مهما كانت كبيرة.

إذن المهم دائمًا أن نقارن انطلاقًا من أفق خصوصيتنا ورؤيتنا الحضارية.

• إن الذي يسمع كلامك - دكتور - قد يفهم منه أن هناك ما يشبه القطيعة والتباين التام بين معاييرنا ومعايير الغرب في المسائل الحضارية؟!

- حين نتحدث عن ضرورة إجراء المقارنات من أفق

خصوصيتنا الثقافية، فهذا لا يعني نفي الأشياء المشتركة بيننا وبين الآخرين؛ بل أقول: إن ما هو مشترك في المسائل الحضارية قد يكون أكثر مما هو خاص؛ فمسائل التقدم العلمي والتقني، ومسائل التنظيم والإبداع والابتكار، وتوفير تكافؤ الفرص، ومساعدة الضعيف، وإنصاف المظلوم، والدفاع عن النفس، ومسائل الصحة، وطرق التربية، وأمور أخرى كثيرة - من هذا القبيل - لا تكاد تختلف بين أمة وأمة إلا في بعض التفاصيل المحدودة؛ ولهذا فإن شعور المسلم بالدونية نتيجة مقارنة أحوالنا بأحوال بعض الأمم الأخرى ليس شعورًا خاطئًا وليس صادرًا عن وهم في معظم الأحيان. وإن تخليص المسلمين من هذا الشعور ومن مشاعر اليأس والإحباط لا يمكن أن يتم من غير تحسين حالهم وردم الفجوة العلمية والتقنية والحضارية التي تفصل عالم المسلمين عن العالم المتقدم. وهذا لا يعني - كما أشرت قبل قليل - مطابقة أحوالنا لأحوالهم، وإنما يعني الاقتراب مما نعتقد أن علينا في الأصل أن نسبقهم إليه؛ لأنه من مستلزمات الحياة الإسلامية، ومن شروط العيش الكريم.

• • •

السؤال الثاني

بعد هذا البيان المستفيض والواضح أود أن أسوق سؤالاً حول معنى مصطلح (التخلف الفكري) والذي يتم تداوله اليوم على نطاق واسع؟

- لنبدأ أولاً بتبيان معنى (التخلف) حين نقول: هذا إنسان متخلف، أو هذه دولة متخلفة، فإننا في الحقيقة نتصوّر أن هناك ركبًا عالميًا يسير، وأن ذلك الإنسان أو ذلك القطر لم يستطع السير معه؛ لذلك فهو خلفه. وبما أن كلمة (خلف) من الظروف التي تدل على مكان غير محدود بحدود، فإنَّ الإنسان المتخلّف قد يكون تخلفه عبارة عن تأخر مسافات محددة كالفارق الذي نجده بين إسبانيا وكندا في التقدم الطبي - مثلًا - أو الفارق الذي نجده بين الجزائر ومصر في التقدم الصناعي. وقد يكون تخلف الإنسان عبارة عن وقوفه عند خط البداية؛ فهو لم يقطع أي مسافة؛ إنه كالمشلول، العاجز عن الحركة. وهذا ما نجده واضحًا في المجال التقني؛ فهناك دول عربية وإسلامية لم تتقدم في صناعة الطائرات أو الإلكترونيات أو صناعة الأدوية - مثلًا - ولا خطوة واحدة عما كانت عليه قبل ألفي سنة. وبهذا المعنى: معنى عدم التقدم المطلق نجد العديد من الدلالات القرآنية، كما في قوله

جل شأنه: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا ﴾ [التوبة: ١١٨]؛ فهم لم يغادروا المدينة، وظلوا خلف النبي ﷺ في مساكنهم حين توجه بجيش المسلمين إلى تبوك، ومثل هذا قوله سبحانه: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ١٢٠] أيّ: ما كان لهم أن يظلوا في مساكنهم ولا يخرجوا مع النبي إلى الجهاد.

• متى تبلور مصطلح (التخلف) في العصر الحديث وصار يستعمل في السياسة والإعلام... إلخ؟

- برز مصطلح (التخلف) بعد نهاية الحرب الكونية الثانية؛ حيث حصلت دول كثيرة من الدول المستعمرة على الاستقلال. وخلال عشرين سنة اجتمع كمٌّ هائلٌ من الدراسات التي تتناول ظاهرة التخلف في شتى المجالات، ذاهبةً في كل اتجاه، ومنطلقة من منظورات متنوعة إلى درجةٍ تجعل الباحث عاجزًا عن التنسيق بينها، ومحاولة دمجها في رؤيةٍ كلية واحدة.

• إذن ما تعريف التخلف الفكري في إطار هذا الشرح لدلالة كلمة (تخلف)؟

- إن التفكير - بتعريف قريب وميسّر - هو: إعمال الذهن في المعلومات والخبرات المتوفرة لدى المرء من أجل الوصول إلى نتائج ومعطيات مجهولة لدى من يفكر قبل

ممارسته للتفكير. ومن هنا فإنَّ التخلف الفكري يحدث لدى المرء بسبب عدم توفر المعلومات الكافية للقيام بتفكير صحيح ومستمر، أو بسبب قصور العقل وتشوهاته، مما يجعله عاجزًا عن القيام بعمليات تفكير جيدة، الأمم التي تعاني من تخلف فكري واضح تجد نفسها في كثير من الأحيان عاجزة عن أن تفكِّر تفكيرًا سويًّا؛ حيث القصور الواضح في تفكيرها الإبداعي والعلمي والموضوعي والعملي....

• من أجل المزيد من الوضوح.. هل نحن أمام قضية واحدة أو أمام قضيتين؟

– ماذا تقصد؟

• أقصد هل حديثنا في هذا الحوار عن تخلف الفكر أو تخلف التفكير؟ وهل تخلف الفكر هو تخلف التفكير أو هما شيئان مختلفان؟

– هذا تساؤل جيد. في الحقيقة يمكن أن تجد نفسك أمام قضيتين مختلفتين إذا نظرت نظرة مستعجلة؛ فالتخلف في التفكير يعني على نحو جوهري القصور في عمليات العقل، وهو يحاول اكتشاف الحقيقة وتشخيص المشكلات وإيجاد الحلول لها. أما التخلف في الفكر فهو التخلف في المفاهيم والأفكار الإصلاحية والتنموية السائدة لدى الأمة.

• **إذن هما قضيتان أليس كذلك؟**

- نعم ولا.

نعم إذا نظرنا إلى عمليات التفكير على أنها شيء مُنبَتُّ الصلة بالمحصول الفكري. أما إذا نظرنا إلى أنَّ العقل وهو يعمل يتغذى بالمفاهيم والأفكار والطروحات السائدة والمعلومات المتوفرة، بل تتجاوز المسألة قضية التغذية إلى أن العقل يعمل في إطار هذه الأشياء ويتفاعل معها.. إذا نظرنا هذه النظرة فإننا فعلًا نكون أمام قضية واحدة، وإذًا لا تكاد تجد مجتمعًا من مجتمعات يملك أبناؤه مستوًى جيدًا من طرق التفكير وأساليبه، وهو فقير في المعلومات أو متخلف في نظمه الإدارية والسياسية، أو متخلف في مؤسساته العلمية والتقنية. أنا أشكرك لإتاحة الفرصة لي من خلال هذه المداخلة كي أوضح لقارئ هذا الحوار أنَّ المسألة حين تتعلق بمجتمع أو أمة هي كما ذكرت قضية واحدة: التخلف في طرق التفكير هو ناتج لتخلف المحصول الفكري - باعتبارٍ ما - وهو منتج لذلك المحصول؛ ولهذا فإنك لا تستطيع أبدًا وأنت تتحدث عن تخلف عمليات العقل وطرق إنتاجه أن تتحاشى الحديث عن الثقافة وعن الأوضاع الإدارية والسياسية والاجتماعية السائدة.

• أريد قبل أن أغادر إلى نقطة أخرى قد تكون بعيدة قليلاً أن أسأل: هل تخلف عمليات التفكير يعود إلى درجة منخفضة في الذكاء أو في التثقيف أو فيهما معًا؟

- قضية الذكاء هنا مستبعدة نهائيًا؛ فنحن لا نتحدث عن التخلف العقلي - والذي يعني أساسًا نقصًا حادًا في قدرات الدماغ - فالغباء أو النقص في الذكاء هو مشكلة فردية شخصية، ونحن هنا نتحدث عن واقع أمة مؤلَّفة من عشرات المجتمعات.

الله - جل وعلا - وزَّع الذكاء على مستوى العالم بالتساوي، فليس هناك أمةٌ كل أبنائها أذكياء، وليس هناك مجتمعٌ كلُ أبنائه أغبياء. القصور في التفكير يعود إلى ضحالة المعرفة وقلة الخبرة، وإلى تكبيل العقل بعادات تفكيرية سيئة، وإلى سيطرة الأفكار والمفاهيم الخاطئة.

والخلاصة أن التخلف الفكري عبارة عن وضعية عامة تصيب الأمة نتيجة القصور المستمر قرونًا طويلة في أعمال العقل وطرق بحثه عن الحقيقة.

• • •

السؤال الثالث

هل التخلف الفكري لدى العالم الإسلامي هو تخلف مطلق، بمعنى: هل أن رصيدنا من صواب التفكير قريب من العدم أو هو تخلف نسبي؟ وإذا كان نسبيًا، فنسبته من أي منظور وبأي اعتبار؟

- التخلف الفكري لدى كل الأمم ليس مطلقًا، إذًا ليس هناك شعب يفكر دائمًا بطريقة خاطئة، حتى الأمم التي توصف بأنها متقدمة لا تفكر دائمًا بطريقة صحيحة، وليس كل أبنائها يفكرون في معظم شأنهم بطريقة جيدة. وأمة الإسلام تملك الكثيرَ من المبادئ والأصول والقواعد التي تساعدها على أن تفكر بطريقة ممتازة، ولكنَّ المشكلة كثيرًا ما تكمن في ضعف التثقيف، وفي الإخفاق في تعميم قواعد التفكير الصحيح على شريحة كبيرة من المسلمين.

الناس في العالم الصناعي كثيرًا ما يفكرون بطريقة خاطئة لأسباب مختلفة عن أسبابنا. إنَّهم يريدون من العقل أن يمنحهم أكثر مما هو قادر عليه؛ ولذا فإنه كثيرًا ما يخذلهم. والقاعدة تقول: كل شيء إذا حمَّلته فوق طاقته فإنك تخسره أو تكاد.

• عفوًا - دكتور - إذا كان العالم الصناعي المتقدم يعاني، ونحن نعاني على صعيد التفكير، وإذا كان التخلف الفكري نسبيًا، إذن على أي أساس تتحدث عن تخلف فكري لدينا؟

- معك حق في إثارة هذه الإشكالية. الذي أودُّ أن أوضحه هنا هو أن المنهج الرباني يملّكنا الرؤية والأصول التي تمكننا من سلوك الطريق الصحيح ومن التعامل الموضوعي والذكي مع القضايا الكبرى. ولا ريب أنَّ الموقف الفكري العام لدينا - من مسائل الموت والحياة والخير والشر والنجاة والهلاك ومسألة المسائل وأعني بها: العلاقة بالله جل وعلا - أقول: لا ريب أن أمة الإسلام على صواب مطلق وقطعي في ذلك. وتكمن المشكلة على هذا الصعيد في أمرين:

الأول: أننا كثيرًا ما نجد أنفسنا عاجزين عن الاستفادة من أصولنا الهادية في معالجة مشكلاتنا السياسية والأخلاقية والاقتصادية؛ فالاحتراب الداخلي والتنازع على الحكم والاستبداد وضعف الالتزام والفقر والبطالة والتخلف التقني والصناعي أمور مؤرقة جدًّا، لا تمكننا في معظم الأحوال من تفعيل المنهجية الإسلامية وتوظيفها والتفريع عليها بما يساعد على حل هذه المشكلات.

الثاني: من الملاحظ أن الناس كلما أوغلوا في التحضر وفي الرفاهية زاد اهتمامهم بالتفاصيل، وأعرضوا عن الاهتمام

بالأصول والمبادئ الكبرى. وهكذا فالمشكلات التي يواجهها التقنيون عند الإعداد لإطلاق مركبة فضائية تحتاج إلى عقل مسلح بالكثير من المعرفة والخبرة المتخصصة، وحاجة ذلك العقل وانتفاعه بالمبادئ الأخلاقية والمنطلقات الكبرى محدودة للغاية. وأظن أن هذا واضح.

• هل يمكن - دكتور - ذكر نقاط محددة تلخص فيها التخلف الفكري في إطار هذا السؤال؟

- أظن أنني أستطيع أن أذكر هنا أربع نقاط:

١ - عدم التمكن من فهم مقاصد الإسلام الحضارية على نحو عميق ودقيق.

٢ - العجز عن توظيف مبادئ الإسلام ومنطلقاته الكبرى في تحسين نوعية الحياة الإسلامية.

٣ - ضعف استثمار الإمكانات الذهنية المتوفرة في حل المشكلات الحضارية الآسنة التي تعاني منها الأمة.

٤ - انخفاض سوية الإبداع والتجديد والابتكار لدى معظم المسلمين.

• • •

السؤال الرابع

قبل أن نبدأ بالحديث عن أشكال ومظاهر التأزم الفكري في العالم الإسلامي أود أن أسأل: هل التأزم الفكري الذي نعاني منه هو تأزم على مستوى عام، أي تأزم بيئة؟ أو هو تأزم فردي؟

- في مسائل التفكير والذكاء والعقلانية وما شابه ذلك هناك تفاوت كبير بين شخص وشخص؛ فقد تجد في الحي الواحد، بل في الأسرة الواحدة شخصًا متفوق الذكاء مستقيم التفكير، وتجد إلى جواره أخًا أو ابن عم له متوسط الذكاء أو غبيًا، كما قد تجد شخصًا ذكيًا لكن تفكيره معوج أو سطحي أو متصلب. وهكذا فإنَّ الإنسان الذي تلقَّى تعليمًا ممتازًا وتدريبًا فكريًا عاليًا يفكر على نحو أفضل بكثير من تفكير والديه أو إخوانه الأميين، أو الذين لم ينالوا إلا القليل من التعليم؛ ولهذا فإنَّ التعميم في كثير من الأمور يشكل خطأً فادحًا يجب أن نحذره، ولكن لا بدَّ إلى جانب هذا من القول: إنَّ البيئة حين يغلب عليها الجهل أو الفقر المعرفي أو التعصب لشخص أو لفكرة أو لمذهب... أقول: إنَّ البيئة حين يغلب عليها شيء من ذلك، فإنها تترك في أبنائها ما يشبه الطابع العام، أي يصبح ذلك الأمر بمثابة الوباء، وتكون النجاة استثناء.

ولا شك أنَّ ذلك يكون أوضح لدى شخص منه لدى شخص آخر.

• هل يمكن ذكر مثال على ذلك حتى يدرك القارئ حقيقة ما تقول؟

- نعم، في إحدى الدول العربية احتفاء خاص بأهل البيت - وأنا بالمناسبة أكن احترامًا عميقًا لهم، وإن كنتُ أعتقد أنَّ الذي يرفع المرء عند الله تعالى هو عمله وليس نسبه - وقد ذكر أحد المعروفين هناك بالحرص على نقاء العقيدة أنه يعرف أهل البيت من خلال ملامح وسمات خاصة في وجوههم. وقال: نحن في بلادنا لا نكاد نخطئ في التميز بين الرجل المنسوب إليهم وغيره. ولا ريب أن في هذا مبالغة ومجازفة كبيرة جدًّا.

وتجد في قرية من القرى أن الناس يعتقدون بولاية شخص مدفون عندهم، وآنذاك ستجد عشرات القصص والحكايات والمنامات التي تدعم ولاية ذلك الرجل وتدعِّم اعتقاد الناس بالبركات التي حلَّت عليهم من وراء دفنه في أرضهم.

إنَّ النجاة من التأثير السلبي للبيئة على التفكير والفهم وتكوين الرؤية ممكنة، لكنها تحتاج إلى وعي مضاعف وإلى انتباه وحذر شديدين.

• بناءً على كلامك فإن علينا إذن في كل مظاهر التخلف الفكري أن نتجنب إطلاق الأحكام العامة.

- هذا صحيح. وأنا أقول مرة ثانية: ربما كان التعميم من أكثر الأخطاء شيوعًا في حياتنا العامة.

• • •

السؤال الخامس

في رأيكم هل نظرة معظم المسلمين إلى طبيعة العقل والذكاء هي نظرة صحيحة أو أنها مصابة بشيء من الغبش أو الانحراف؟

- في البيئات التي تغلب عليها التقاليد الثقافية الشفهية وتلك التي تعاني من تخلف تقني - منها معظم البيئات الإسلامية - يميل الناس على نحو عام إلى تقدير كل شيء فطري تقديرًا عاليًا على مقدار ما يُظهرون من الحط من قدر الأمور المكتسبة. ولا يشكل العقل والذكاء استثناءً من هذا. ودعني لو سمحت أن أعزل الحديث عن العقل عن الحديث عن الذكاء بغية المزيد من الوضوح.

• تفضل.

- ليس من اليسر التعرف على طبيعة العقل وعلى إمكاناته ومجالات عمله الأساسية، كما أنَّ من العسير جدًّا عزل ما يمكن أن يقوم به العقل بعيدًا عن الثقافة والمعرفة؛ إذ إنك حين تُجري اختبار ذكاء لابن الخامسة - مثلًا - فإنك تختبر - في الحقيقة - ذكاء مزودًا بخبرات محلية خاصة؛ ولهذا فإنَّ المتوقَّع أن يحصل خلط والتباس في فهم دور العقل. وبالتالي في فهم الموقف الصحيح منه وفهم أُسلوب التعامل الرشيد معه.

• هل هذا خاص بالمسلمين أو عام؟

– المشكلة عامَّة لدى المسلمين ولدى غير المسلمين، لدى الأمم الصناعية المتطورة، ولدى الأمم النامية والمتخلفة، لكن تلك المشكلة تتخذ أشكالًا مختلفة بين مجتمع وآخر، وأحيانًا بين شخص وآخر.

• أنا أعتقد أن من الأشياء المهمة أن نتمكن من تحديد مفردات هذه المشكلة في نقاط مختصرة ومركزة إذا ما أردنا الدخول إلى صلب موضوع التخلف الفكري في العالم الإسلامي.

– هذا صحيح وأنا سأفعل هذا، لكنَّ الاختصار لن يكون مفيدًا؛ لأنَّ المشكلة شائكة ومعقدة.

إنَّ كثيرًا من علمائنا القدامى نظروا إلى العقل نظرة موضوعية، يؤيدها اليوم الكثير من الأبحاث التي تُجرى في مجال الرياضيات والفيزياء والكيمياء وعلوم الإنسان والطب، وتقوم تلك النظرة على أنَّ العقل عبارة عن بنية مزودة بمبادئ وقدرات خاصة وعظيمة، ولكنَّها أيضًا محدودة. وقد شبَّه بعض علمائنا العقل بالعين، فهي تبصر الأشياء ضمن شروط؛ منها أنها لا ترى إلا ما غمره النور. وهكذا العقل فإنه لا يستطيع إدراك المبادئ الكبرى ولا العلل الأولية ولا الغايات النهائية للوجود. وعلى هذا المستوى فإنَّه يحتاج إلى نور الوحي

ومعارفه كي يستطيع أن يعمل بطريقة صحيحة، وحين يفكر في الأمور الجزئية والتقنية، وحين يحاول أن يبدع وسائل وطرائق جديدة فإن النور الذي يحتاجه هو نور العلم التجريبي والخبرة والثقافة. ولا أريد أن أسترسل أكثر فأكثر في هذا الشأن؛ حيث إنَّ المهم أن نعرف نظرة معظم الناس في عالمنا الإسلامي للعقل اليوم، وهي تتلخَّص في المفردات الآتية:

المفردة الأولى: تتمثل في النظرة إلى العقل على أنه بنية مكتملة ومعزولة، وعلى المرء أن يرضى بما قُسِم له من قدرة على الفهم. ويعدون ذلك الرضا منقبة من المناقب. ويعبرون عن هذا بقولهم: قسَم الله العقول والأرزاقَ، فرضي الناس بعقولهم، ولم يرضوا بأرزاقهم. إنَّهم يريدون من الناس أن يرضوا بأرزاقهم كما رضوا بعقولهم.

• عفوًا يا دكتور هل هذا خطأ؟! أو ليس ينبغي فعلًا على المرء أن يرضى بما قسمه الله له من ذكاء وإمكانات عقلية؟

– الرضا عن الله – تعالى – وعمَّا قضاه وقدَّرهُ مطلوبٌ في كل الأحوال، ولكن بشرط الفهم الصحيح للأمور، فما دامت العقول قابلةً للتنمية والتحسين، فإنَّ علينا أن ننميها، كما يفعل الرياضي حين ينمي عضلاته من خلال التمرين. ما رأيك لو أنَّ الناس نظروا إلى تنمية عضلاتهم على أنه يخالف الرضا بما قسمه الله؟!

• تمام تمام.

– وقد ترتَّب على هذه النظرة إهمال شبه تام لدى معظم الناس لمسألة تحسين المهارات العقلية لديهم من خلال التدريب على التفكير وبلورة المفاهيم وفحص العيوب والأخطاء الفكرية.

• لا أريد – دكتور – أن ننتقل من هذه النقطة قبل أن تبين الموقف الصحيح حتى لا نكون كمن يشكو دون أن يقدم حلًا أو بديلًا.

– هذا صحيح. وفي اعتقادي أنَّ النظرة الصحيحة للعقل تقوم على أنه – أي العقل – عبارة عن قدرات وإمكانات ومفاهيم وبدهيات ملتبسة بالمعطيات المعرفية التي في حوزة الإنسان، كما أنها متلبسة أيضًا بالمشكلات والقضايا الوجودية المختلفة؛ فنحن حين نفكر في مشكلة – كالفقر مثلًا – فإننا قبل التفكير نملك بعض المعلومات والمفاهيم حوله، وبعد الانتهاء من عمليات البحث والتفكير ننتهي إلى نتائج ومفاهيم جديدة، وهذا يعني أنَّ عقولنا تتأثَّر بالمعلومات التي تعالجها، وهذا التأثر قد يصل إلى حدِّ التراجع عن بعض آرائنا ومواقفنا.

هذه النظرة للعقل على هذا النحو تساعدنا على التخلص من التصلب الفكري؛ حيث يرى المصاب به أنَّه يملك أعدادًا كبيرة من الرؤى والأفكار القطعية، كما يرى أنَّ الحلول التي

في حوزته نهائية؛ بل يرى أن خطوط التفكير لديه وأنَّ مُسَلَّماته هي رأس مال عزيز جدًّا لا ينبغي التفريط به، مع أن تلك المسلَّمات لم تتعرَّض لأي اختبار حقيقي، وليس هناك نصوص قطعية تدل على وجوب الاحتفاظ بها. ولا شك في أنه يجب أن يظل لدى الإنسان بدهيات ومسلَّماتٌ وركائز فكرية أساسية، لكنَّ عليه أن يحْذَرَ من أن تتحول الظنيات في عقله إلى قطعيات، وما هو قيد الصيرورة والتشكل إلى أشياء نهائية وحاسمة.

• دكتور.. إذا أردنا التعبير بكلمات قليلة عن المشكلة التي تترتب على النظر إلى العقل على أنه بنية مكتملة ومعزولة، فماذا تقول؟

- نقول: المشكلة تتمثَّل في بطء أو انعدام التطور الفكري والخوف من الجديد، والعمل على مقاومته بناءً على أنَّ العقل يرفضه، وما رفض ما رفضه العقل - في كثير من الأمور - إلا لسبب عدم التفاعل معه وعدم الوقوف الموقف الصحيح منه.

• هذا شيء جيد، وأرجو أن نعود إلى الحديث عن موقف معظم المسلمين من العقل.

- نعم.

المفردة الثانية: تتمثَّل في الطلب من العقل أن يحكم في

أمور ليس من شأنه الحكم فيها؛ لأنه ليس في تركيبه الخاص خانات لها. وعلى سبيل المثال فإنَّ العقل لا يستطيع من خلال مبادئه الأساسية وقواه الفطرية التفريق بين المهم وغير المهم، واللائق وغير اللائق، والآمن والخطر، والضار والنافع، وما يستحق الاستعجال وما يمكن أداؤه على التراخي، كما أنه لا يفرِّقُ بين الكثير من مفردات الخير ومفردات الشر. والدليل على هذا اختلاف الأمم والشعوب والأفراد في الكثير الكثير مما أشرت إليه، ولو كان ذلك من مدركات العقل الفطرية لما اختلف الناس فيه؛ لأنَّ الأحكام العقلية المحضة لا تختلف باختلاف اللغات والأعراف والثقافات والأديان.

حين تطلب من العقل إصدار أحكام في تلك الأمور وتعوِّل عليه في ذلك، فإنَّ علينا آنذاك أن ننتظر ونتوقَّع كثيرًا من الأحكام الفجة وسوف يخذلنا العقل ونحن في أمس الحاجة إليه؛ بل إنَّهُ يسبب انشقاقًا عالميًا، ويُحدثُ الكثير الكثير من سوء الفهم وسوء التقدير، والذي يترتَّب عليه بالتالي سوء العمل وسوء الموقف.

• هذا كلام مثير ومهم: ولكن إذا كان العقل لا يَفْصِلُ في هذه الأمور فما الذي يَفْصِلُ فيها إذن؟

– الذي يفصل في هذه الأمور هو الثقافة بالمعنى العام لها، والذي يعني مجموعة العقائد والمفاهيم والأفكار والنظم والعادات والتقاليد والأعراف السائدة في بيئة معينة.

حين غزا الأوروبيون أفريقية في القرن التاسع عشر أبدوا اشمئزازهم من تبذل المرأة الإفريقية وعدم احتشامها في ملابسها، وذلك بسبب وجود حالة الستر التي كانت لدى النساء في أوروبا في ذلك الوقت. واليوم وصلت المرأة الأوروبية إلى أقصى درجات العري، وتم النظر إلى ذلك على أنه تطور طبيعي للذوق، وهو مع ذلك حق من حقوق الإنسان التي لا يصح لأحد أن يصادرها.

والأوروبيون يستهجنون اليوم تحريم المسلمين لأكل لحم الخنزير، وتحريمهم لشرب قليل الخمر وكثيره، ويستغربون من رفض المسلم الملتزم مصافحة المرأة الأجنبية، وإعراضه عن النظر إلى شيء من جسدها. ونحن في المقابل نستهجن سلوكهم في كل هذه الأمور. عدم إدراك معظم المسلمين لهذا المعنى – معنى عدم قدرة العقل في الحكم على هذه الأشياء – أوجد لديهم تراخيًا كبيرًا في الاستثمار في الثقافة، وتوانيًا في السعي إلى جعل التغيير الثقافي مفتاح تغيير أوضاعنا العامة برمَّتها؛ ولهذا نجد الكثير من الإهمال التربوي والكثير من اللامبالاة في زرع المفاهيم والقيم والمبادئ في نفوس الناشئة، وذلك اتكالًا على إدراك العقل لها، مع أنَّ العقل غير قادر على ذلك.

المفردة الثالثة: وهي تتمثل في عدم فهم أهمية الخبرة في عمل العقل، وإن شئت أن تقول: الاستهانة بالخبرة والدراية

لصالح الثقة الزائدة بالعقل. إنَّ كثيرين منا؛ بل إنَّ أكثرنا لا يعرفون أنَّ عقولنا عبارة عن بِنًى يسهل خداعها، وأنَّها في أحيان كثيرة تخطئ؛ حين نزودها بمعلومات خاطئة، إنَّها بمعنى آخر لا تستطيع إدخال تحسينات كثيرة على المعلومات التي نزودها بها.

إنَّ الخبير قد يخدع الذكي غير الخبير بسهولة بالغة، لكنَّ الذكي لا يستطيع أن يفعل ذلك بالخبير متوسط الذكاء؛ وذلك لأنَّ العقل لا يعمل من خلال الخبرة. وحين تكون الخبرة لدى من يفكر محدودة فإنَّ عمل العقل يكون مشوهًا أو ناقصًا.

• هل من مثالٍ - دكتور - حول قضية هيمنة الخبرة وحول سهوله خداع العقل؟

- نعم، على سبيل المثال إذا كنت تعرف أنَّ أقصى ما يحمله إنسان هو مائتا كيلو غرام، فإنَّك تُكذِّبُ من يقول لك: إنَّ فلانًا يحمل ثلاثمائة كيلو؛ لأنَّ خبرتك لا تسمح بهذا. فلو اتَّفق عشرة من المتخصصين في رفع الأثقال على خديعتك، وقالوا: إنَّك صاحب معرفة قديمة ومنسوخة وإنَّ في بعض نوادي روسيا من يحمل أربعمائة كيلو غرام، وذكروا لك بعض الأسماء، وأبرزوا لك بعض الوثائق ماذا سيكون موقفك؟

• غالبًا سوف أشكُّ في معلوماتي السابقة، وأراجعها وأتّهم نفسي. وقد أتراجع عن معرفتي السابقة وأسلّم لهم ما يدعون.

– وهذا يحدث بسبب أنَّ الحكم العقليَّ السابق الذي كنت تصدره ليس نابعًا من طبيعة العقل وتركيبته، ولكن مما زوَّدناه به من معرفة وخبرة.

• دكتور.. ماذا يترتّب على النظرة الصحيحة للعقل والخبرة؟ وما الذي يترتّب على النظرة الخاطئة؟

– هذا سؤال مهم. في اعتقادي أنَّ الذي يترتَّب على النظرة الخاطئة إلى تأثير الخبرة في العقل وهيمنتها عليه هو إصدار أحكام غير موثوقة وغير واقعية؛ بل قد تكون خيالية مغرقة في الخيال، وذلك انطلاقًا من أنّنا عقلاء ونتمتع بقدر حسن من الذكاء وحسن الفهم، وكم دارت بين أناس أذكياء من حوارات ومناقشات، وقد كانت ثمراتها معدومة أو تافهة بسبب أنَّ المتحاورين يتحاورون ويتناظرون في أمور ليس لديهم من معلومات كافية حولها، كما أنَّ خبراتهم العملية بها معدومة، وربما أفضَت تلك الحوارات إلى تكريس الأوهام واستنبات مقولات خاطئة وتعكير القلوب.

أما الذي يترتَّب على النظرة الصحيحة لدور الخبرة في الحكم العقلي ولدورها المحوري في عمليات التفكير، فهو الكفُّ عن تحميل العقل ما لا يتحمله، والسعي إلى امتلاك المعلومات والخبرات المطلوبة لإصدار أحكام صحيحة وجيدة.

ولا يخفى - أخي الكريم - أنَّ التقدم الذي يحدث في هندسة وتصميم وتوسيع قدرات الحاسبات الآلية كان من الممكن أن يكون عديم الجدوى لولا التقدم الحثيث الذي يحدث في مجال البرمجة والتي تشبه الخبرة التي تشغل العقل البشري.

أما المفردة الرابعة والأخيرة: فتعلّق بمسألة تعطيل العلاقة بين الأسباب والمسببات، إنَّ اللَّه - جلَّ وعلا - قد رتَّب شؤون هذه الحياة ترتيبًا منطقيًّا مفهومًا ومعقولًا، وذلك من أجل الانتفاع بما سخَّرهُ للناس، ومن أجل تمكينهم من إعمار الأرض ومواجهة ابتلاءات الحياة. وقد قال اللَّه تعالى عن ذي القرنين: ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ۝ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ [الكهف: ٨٤، ٨٥] أي: آتاه من كل شيء أسبابًا وطرقًا يتوصَّل بها إلى ما يريد من فتح المدائن وقهر الأعداء، وقد أخذ ذو القرنين بتلك الأسباب بجد واجتهاد.

إن كثيرًا من المسلمين اليوم - ولا سيما العامة وأشباه العامة - لا يأخذون بالأسباب المطلوبة لتحقيق النتائج التي يريدون الوصول إليها. وهكذا فهناك من ينتظر - كما يقولون - ضربة الحظ كي تنقلب أوضاعه رأسًا على عقب، وهناك من ينتظر فرجًا لأزمة لم يحسن التعامل معها، ولم يأخذ بأسباب حلِّها. وهناك من ينتظر الخوارق التي ستنقله من طور إلى طور: مع أنَّ اللَّه تعالى يخرق السنَنَ الكونيةَ لمن

يشاء من عباده، وليس السنن الاجتماعية.

وكثيرًا من عدم الأخذ بالأسباب يعود إلى مزيج من التخلف الفكري والمعرفي والاجتماعي. وهذا المزيج يتجلَّى في عدم فهم نوعية السبب الذي يجب الأخذ به للوصول إلى الأهداف المرجوة، بمعنى أننا نُجِلُّ الأسلوب الفني الملائم للتعامل مع قضية من القضايا أو مشكلة من المشكلات.

إنَّ كثيرًا من المسلمين لا يعرفون أنَّ نتائج معينة تحتاج إلى أساليب ووسائل وسلوكيات ومقدمات واستعدادات معينة، ربط البارئ - جل وعلا - بينها على نحو محكم؛ ولذلك فإنَّهم يظلون حائرين في أمرهم.

• دكتور... أريد هنا أن أسأل عن شيئين:

الأول: معنى عدم خرق السنن الاجتماعية.

الثاني: أسباب حدوث ما ذكرته من تعطيل العلاقة بين الأسباب والمسببات.

- أخي الكريم معظم المشكلات التي يعاني منها المسلمون هي مشكلات أخلاقية وسياسية واجتماعية وفكرية، وهذه المشكلات محكومة بقوانين شبيهة بقوانين الفيزياء والكيمياء، ولا بدَّ من الرضوخ لتلك القوانين. وإلا لن نتمكَّن من حلها.

إنَّ طيَّ الأرض لمسافر أو تكثير الطعام أو شفاء مريض من غير دواء.... أمور كونية خُرِقَت وتُخرَق مُعجزةً لنبيٍّ

أو كرامةً لولي. أما القوانين الاجتماعية والسياسية، أو قل السنن التي تحكم حياتنا السياسية والاجتماعية فإنها لا تخرق؛ فالزحام يثير تضايق الناس وهذه سُنَّةٌ. والتنشئة الصالحة تحتاج إلى جهود وأساليب تربوية صحيحة. ودخول الناس في الإسلام واستقامتهم عليه يحتاج إلى دعوة، ومع الدعوة ورغبتنا في الإصلاح وصلاح الناس وتدينهم قد يحدث ما نحب، وقد لا يحدث، وقد قال الله لنبيه ﷺ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص: ٥٦].

هذه السنن لا تُخرَق فهي في صلب مسألة الابتلاء. وقد يبارك الله في جهد معين أو يقي شرَّ أمرٍ معين، ولكن لا بدَّ من الأخذ بالأسباب والقيام بعمل يبارك الله فيه أو بسببه. وعلينا أن ننتبه إلى أنَّ خرق السنن الكونية يتمُّ على نحو استثنائي؛ ففي حياة النبي ﷺ وحياة الصفوة من صحبه الكرام خرق للسنن الكونية محدود. قد يحدث ذلك في حياة الرجل مرة أو مرتين أو ثلاث مرات وباقي شؤون حياته المديدة يظل خاضعًا للسنن؛ ولهذا لبس ﷺ في بعض المعارك درعين عوضًا عن درع واحدة. كما أنَّا لا نعلم أبدًا تكثير الطعام - مثلًا - لأحد حوَّلَ مجرى حياته، فصار يجد الطعام كما أحبَّ من غير سعي إلى إعداده أو الحصول على ثمنه.

أما سؤالك: لماذا حدث ويحدث ذلك التعطيل للعلاقة بين الأسباب والمسببات؟ فإن جوابك هو: إنَّ ذلك يحدث كما حدثت وتحدث كلُّ أشكال التخلف في حياتنا وواقعنا: جهل بالشريعة واتِّباع للشهوات وكسل وفوضى وظلم واستبداد وأخطاء وخطايا، هذه أسباب تخلفنا، وهذا طبعًا جواب عام والتفصيل يحتاج إلى كلام كثير.

• دكتور... قبل أن نطوي هذه الصفحة. كيف تتصور العلاج لتحسين رؤيتنا لطبيعة العقل وطبيعة عمله وقدراته حتى نستخدمه الاستخدام الصحيح؟

- لا يمكن نشر المفاهيم الراقية والمعقدة في مجتمعات تبلغ نسبة الأمية فيها (٣٠) أو (٤٠٪)، وعلى هذا فتحسين فهمنا لعمل العقل مرتبط إلى حدٍّ بعيد بتحسين المستوى المعرفي لدينا، وأعتقد أنَّ لطلاب المرحلة الثانوية وطلاب الجامعة موضوعات حول طبيعة العقل وحدود عمله، وحول أساليب الارتقاء به. ولا شك أنَّ الخطوة الأُولى تتمثّل في توضيح الجهل العظيم الذي نعاني منه على الصعيد الفكري وعلى صعيد فهمنا لأنفسنا وعقولنا.

• • •

السؤال السادس

يحيط بالعالم الإسلامي كثير من الأخطار المحدقة على المستوى العقدي والأخلاقي، وعلى المستوى الثقافي والاجتماعي والاقتصادي؛ بل على المستوى العسكري أيضًا، فهل ترون أننا نملك الكفاءة الفكرية لإدراك أبعاد تلك المخاطر، وأنَّ هناك نوعًا من الضبابية في رؤيتنا لذلك؟

- التخلف الفكري الذي نعيش فيه يمنعنا في الحقيقة من فهم واقعنا، ومن رؤية المخاطر التي تُحدِقُ بنا... المخاطر التي تواجهنا في كل المجالات وعلى كل المستويات، ليست بالطبع جديدة، أو قل: على الأقل إنَّ كثيرًا منها ليس جديدًا؛ ولذا فإنَّ الناس قد تكيفوا معها على نحو سلبي. الناس منذ خمسين سنة وهم يسمعون من بعض الساسة والإعلاميين والمفكرين من يقول: إننا نمر بمرحلة دقيقة وحاسمة. واليوم يسمعون الكلام نفسه، فما الجديد؟!

إنَّ أزماتنا ومشكلاتنا عبارة عن أمراض مزمنة نعاني منها، وإنَّ المهم دائمًا ليس وجود المرض، ولكن إحساس الناس بأنَّ هناك مرضًا تجب معالجته.

بعض الأمراض يفتك بالبدن دون أن يُحدث ألمًا؛ ولهذا فإنَّه يشكِّل خطورة بالغة، وهو يحتاج إلى تشخيص من قبل

طبيب ماهر. وكلَّما كان المرض دقيقًا وخفيًا لم تكفِ الفطنة والمهارة البشرية لمعرفته وتحديده؛ بل لابدَّ من الاستعانة بالكثير من الأجهزة المتقدمة.

وفي المجال الإنساني - عامة - يكون تحديد المشكلات أكثر صعوبة؛ لأنَّ طبيب الأبدان يتعامل مع جسد.. مع شيء ملموس ومرئي. أما المفكر والمصلح فإنَّه يتعامل مع رموز وتعريفات ومصطلحات وأرقام ومفاهيم ودلالات ودراسات، فيها عنصر بشري كثيرًا ما يُوهِم ويتوهَّم ويخطئ... إنه يتعامل مع شيء هو من صناعة الذهن وصناعة المعرفة؛ ولهذا فإنَّ المهمة التي تواجهه أصعب من المهمَّة التي تواجه الطبيب.

إنَّ معايير السلامة الصحية أو الوضعية الصحية التي ينبغي أن يتمتَّعَ بها الناس واضحةٌ ومتفقٌ عليها على نحو عام. وليس كذلك الشأن في تحديد الحالة الصحية للحضارة، ومن هنا فإنَّ تحديد المخاطر يحتاج إلى معرفة. ولا وجود لتلك المخاطر في عقولنا وفي أحاسيسنا من غير تلك المعرفة. وقد كان دقيقًا جدًّا من قال: (لا مشكلات بدون معرفة).

• عفوًا – دكتور – لهذه المقاطعة: نحن نعرف الأدوات التي يحتاج إليها الطبيب في تشخيص أمراض مراجعيه. لكن ما الأدوات التي يحتاج إليها المفكر ويحتاج إليها الناس من أجل المخاطر التي تحيق بهم؟

– هذا السؤال كبير والجواب عليه طويل، ولكن على نحو موجز يمكن القول: إنَّ التقدم الحضاري يرفع حساسية الناس نحو المشكلات بما يوفر لهم الرفاهية. وحين ترتفع درجة الحساسية فإنَّ الناس آنذاك يرون من المشكلات ما يغفل عنه أولئك الذين يعيشون في أجواء البؤس والفوضى والجهل، تمامًا مثل ضعيف النظر حين يضع نظارة طبية ملائمة، فإنَّه يرى ما لا يراه حين يرفعها عن عينيه. وحين يرى الناس تلك المشكلات فإنَّ تلك الرؤية تدفعهم إلى البحث عن الأدوات التي تساعدهم على رؤية مشكلاتهم على نحو أوضح، وتساعدهم على الاهتداء إلى طرق معالجتها أيضًا. ولا شك في أنَّ المفاهيم الجيدة والمعايير الواضحة ومنهجيات البحث المتقدمة، هي الأدوات الأساسية لفهم الأخطار والمشكلات وتحديد الموقف الجيد منها.

وقد يكون تفتيت كل مشكلة إلى أصغر أجزاء ممكنة بالإضافة إلى فهم أسبابها والعلاقات التي تربطها بمظاهر الحياة المختلفة، إلى جانب استخدام الإحصاء والبحث المنهجي...

أقول: قد تكون هذه الأمور من جملة ما ينبغي القيام به من أجل فهم المشكلات والأخطار التي تهددنا.

• هذا جميل جدًا فلنعد - لو سمحت - إلى ما كنا فيه عن الحديث عن مدى إدراكنا للمخاطر المعاصرة.

- نعم أنا أحسُّ أننا اليوم نملك حساسية نحو المخاطر المباشرة مهما كانت صغيرة، على حين أن وعينا مصاب بشيء من التبلد تجاه الأخطار الكبيرة غير المباشرة، فأهل قرية - مثلًا - يدركون خطورة فيضان مياه الأنهار على مزروعاتهم، ويسعون إلى عمل شيء تجاه هذا وذاك. لكنَّهم لا يدركون خطورة النزعة المادية المتعاظمة التي تجتاحهم، كما لا يدركون خطورة عدم امتلاكهم أي قدر جيد من الثقافة المطلوبة لتربية أبنائهم.

ومع سيطرة الإنسان شبه التامة على البيئة المحيطة فإنَّ المخاطر المحسوسة والمباشرة التي كان الإنسان يواجهها قد تراجعت إلى حدٍّ بعيد، وحلَّت محلها أنواع جديدة من المخاطر غير المحسوسة وغير المباشرة.

ونحن في الدول النامية لم نملك بَعدُ الوعي الكافي والأدوات المطلوبة للتعامل مع هذه المخاطر.

• أريد هنا أن أستفسر عن أمرين:

الأول: هو لماذا ندرك الأخطار المباشرة على نحو أفضل من إدراكنا للأخطار غير المباشرة مهما كانت كبيرة، كما ذكرت قبل قليل؟

الأمر الثاني: أريد بعض الأمثلة على المخاطر الكبرى غير المباشرة.

- أظن أن الفزع من المخاطر المباشرة شيء موروث من الحياة البدائية الأولى؛ حيث كان الناس لا يملكون ما يكفي من الوعي لرؤية غيرها. قد كان الذي يهدد حياتهم كثيرًا ما يكون وحشًا كاسرًا أو سيلًا جارفًا أو إعصارًا مدمرًا، والبدائيون في أدغال أفريقيا وغيرها ما زالت هذه وضعيتهم إلى هذه اللحظة.

الأمم التي تسيطر عليها التقاليد الثقافية الشفهية، وتنتشر لديها الأمية ما زالت تحسُّ بما أحسَّ به أسلافها من قبل، لكن بدرجة أقل. أما إدراك المخاطر غير المباشرة. ولا سيما تلك التي بين أسبابها ونتائجها فترات سماح طويلة، فهذا يحتاج - كما أشرت - إلى مفاهيم جديدة وإلى مراكز بحوث ودراسات، وإلى الكثير من الأطر والمؤسسات التي تأخذ على عاتقها الارتقاء بنوعية الحياة، والذي سيدفع الناس دفعًا إلى تلمس المشكلات غير المباشرة وغير الملموسة. وهذه المفاهيم

والمؤسسات غير موجودة لدى الأمم النامية بالقدر الكافي.

أما ما طلبته من أمثلة على المشكلات غير المباشرة فهو كثير في الحقيقة، وذلك مثل تراجع التماسك الأسري، فضلًا عن ضعف إحساس الناس بالأهداف الكبرى والغايات النهائية لوجودهم في هذه الحياة.

على الصعيد الصحي هناك أمراض وأوبئة تنتشر كانتشار النار في الهشيم دون أن يُقلق ذلك كثيرًا من الناس مثل السرطان والإيدز والحساسية.

وهناك على الصعيد الاقتصادي النضوب المتزايد للمياه العذبة في الكثير من بلداننا الإسلامية؛ بالإضافة إلى تمدد التصحر وانتشار التلوث البيئي ونفاد المواد الأولية وغير القابلة للتجدد.

هذه مشكلات كبرى لكن بما أنها لا تمسُّ على نحو مباشر حياة كثير من الأفراد فإنَّ الناس لا يشعرون بها، ولا يعملون شيئًا يُذكر من أجل مواجهتها.

• أليس في هذا نوع من التعميم في الاتهام، ونوع من القسوة على النفس؟

– شكرًا لهذه الملاحظة. وأنا أقول دائمًا: إنَّ التعميم خطأ منهجي يجب أن نحذر الوقوع فيه. أنا بالطبع لا أعمّم، فهناك من المسلمين أشخاص كثيرون يدركون هذه الأمور،

وحوارنا هذا برهان على ذلك، ولكنَّ نسبة من يدرك هذه الأمور المخاطرة في الأمة أقل بكثير مما هو مطلوب، والنادر لا حكم له. والدليل على ذلك هو ضعف ما قمنا به من أجل مواجهة هذه المشكلات.

ذكرت بعض الإحصاءات مؤخرًا أنَّ المصابين بالإيدز في العالم العربي قد بلغوا مليونًا. فأين هم المتطوعون وأين الجمعيات التي تهتم بهذه الشريحة؟؟ وربما كان كثير من المصابين من الأطفال الذين حصلوا نتائج إجرام أحد آبائهم.

والشيء نفسه يقال في كلِّ المشكلات التي ذكرتها، نعم قد يتوفر شيء من ذلك لكنه أقل بكثير مما هو موجود لدى غيرنا، وأقل مما هو مطلوب وما هو ممكن أيضًا، والقاعدة أنَّ لدى العالم النامي دائمًا شيئًا مما لدى غيره لكنه دائمًا أقل مما هو مطلوب وأدنى مستوى.

لا يستطيع أحدٌ أن ينكر أنَّ معظم الآباء والأمهات في عالمنا الإسلامي لا يشعرون بالحاجة إلى قراءة كتاب أو كتابين في التربية الأُسرية؛ لأنهم لا يملكون الاهتمامات والمفاهيم التي تحفزهم على ذلك، فإذا قامت فينا هيئات ومؤسسات وجمعيات تهتمُّ بتفاصيل التربية الأُسرية، فإننا نكون قد بدأنا فعلًا في التعامل مع المشكلات غير الملموسة وغير المباشرة.

والقاعدة العامة أنَّ الأمم كلَّما بحثت في التفاصيل وعملت

على مواجهة المشكلات التي يغفل عنها الناس أو يعدونها غير ذات بال، فإنها تكون قد بدأت فعلًا بفهم المشكلات الكبرى غير المباشرة وغير الملموسة.

• عفوًا – دكتور.. ستلاحظ أنني ألحُّ على الأسئلة من أجل مزيد من التوضيح لمن يقرأ هذا الحوار؛ ولهذا فإني أريد هنا أمثلة على بعض تفاصيل المشكلات التربوية.

– أنا شخصيًا مهتمٌّ بهذه القضية. وأتصوَّر أنَّه ينبغي أن تكون لدينا مؤسسات تساعد الآباء والأمهات على التعامل الراشد مع أبنائهم المراهقين، كما تزودهم ببعض الإرشادات التي تجعلهم يربونهم بطريقة أفضل، ويجب أن تكون لدينا مؤسسات تعلم الأبوين كيف يهتمَّان بطفل موهوب منَّ الله به عليهما. ومؤسسات تعلِّمُ الأبوين كيف يربيان طفلهما الوحيد الذي لم يرزقا غيرَهُ. ومؤسسات تعلِّم الأبوين التعامل مع الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة من ذوي العاهات الجسمية والعقلية وهكذا...

• • •

السؤال السابع

كنت قرأت في بعض كتب الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله وفي بعض كتبك أيضًا ما يفيد أنَّ كثيرًا من المسلمين يعانون من بناء أحكامهم ونظراتهم وتقييماتهم على أساس الأمور الشاذة والنادرة، ويُسقطون بذلك ما للقاعدة والأشياء المطردة من وزن واعتبار وأهمية. فهل ننظر إلى هذه الوضعية على أنها فعلًا قائمة؟ ثمّ إذا كانت موجودة فهل هي مما يشكِّل مفردات أزمتنا الفكرية؟

- أعتقد فعلًا أنَّ إسقاط القاعدة بالمثال الشاذِّ يشكِّل ثغرة في بنائها الفكري. وأنا أيضًا هنا لا أعمِّم؛ فلدينا رجال ونساء وشباب وشيوخ كثيرون يملكون الرؤية الشاملة والمتوازنة، لكنَّ هؤلاء لا يشكِّلون إلا فئة قليلة. وأحبُّ أن أوضح هنا أنَّ ما ذكرناه، وما سنذكره من عيوب التفكير وقصور الفكر وأشكال التخلف فيهما سائدٌ لدى ذوي الثقافة الشعبية على نحو واسع جدًّا، يكاد يصل إلى حد الشمول. كما أنه موجود لدى شريحة واسعة من طلاب الجامعات ولدى الخريجين وبعض مَن نسميهم مثقفين.

وبالعودة إلى سؤالك أودُّ أن أقول: إننا في الأمور الإنسانية كثيرًا ما نجد أنفسنا عاجزين عن إيجاد تعريفات جامعة مانعة -

كما يقول المناطقة - بسبب تعقيد كل ما يتصل بالشأن الإنساني؛ ولهذا هناك أمور تخرج عن القاعدة دائمًا، وتمثل الشيء الشاذّ أو النادر؛ ولهذا قالوا: (لكل قاعدة شواذ). والمشكل هو أن نأتي إلى هذا الشيء الشاذ فنتّخذ منه أصلًا نبني عليه، أو نتخذ منه مثالًا لإبطال القاعدة.

إنَّ كثيرًا من الناس لا يتفع بقولك: إنَّ من المهم أن نهيئ للأبناء جوًّا دراسيًّا ملائمًا حتى يتمكنوا من المذاكرة الجيدة. وكثيرًا ما يكون جوابهم على شاكلة: هذا ليس ضروريًّا، ففلان صار طبيبًا كبيرًا مع أنه كان يعيش في غرفة واحدة مع أبويه وإخوته الخمسة. أو يقال لك: إن فلانًا يعيش في قصرٍ، مع ذلك لم ينجح في دراسته. والمراد من وراء القولين واحد، وهو إبطال أهمية البيئة الملائمة للمذاكرة تعلقًا ببعض الصور القليلة التي رآها.

ولو أنك مضيت مع أولئك في كل شؤون الحياة لوجدت أنَّ كثيرين منا لا يعتقدون أنَّ هناك شروطًا وقواعد وأسسًا معينة لتحقيق النجاح في كل قضية من القضايا. وتخرج بشعور أننا نعيش في عالم فوضوي خالٍ من طبائع الأشياء وسنن الله تعالى في الخلق.

• في المثال الذي ذكرته على وجه الخصوص لماذا تتجه عقول بعض الناس إلى إنتاج هذه المقولات؟

- الذي يسوّغ مثل هذا القول تحديدًا هو عدم وجود فهم لطبيعة العلاقة التي تربط بين الحدث وشروطه. وأنت تعرف أن الأصوليين يقولون في تعريف الشرط: إنّه ما يترتّب على عدمه العدم ولا يترتّب على وجوده وجود ولا عدم لذاته.

فالشاب قد يتفوّق في دراسته ويذاكر مذاكرة جيدة ولو كانت البيئة المنزلية غير مواتية للمذاكرة؛ لأنه قد يجد بيئة مواتية خارج المنزل؛ مثل المسجد أو منزل أحد الأصدقاء أو المكتبة العامة. وقد يتفوّق في دراسته لأنّه ذكي جدًّا يكفيه كي ينجح القليلُ من القراءة. ولكن علينا أن نتذكُر أنه ليس كل الشباب أذكياء جدًّا، كما أنه ليس كل شاب يستطيع أن يجد مكانًا ملائمًا للدراسة يكون بديلًا عن منزله. أما الفتى الذي يعيش في القصر، وتحيط به الرفاهية من كل الجهات، ويجد خدمات من كل الأنواع، فقد لا ينجح في مدرسته أو جامعته؛ لأنّ النجاح يتطلب عددًا من الشروط؛ مثل حب التخصص والمثابرة على بذل الجهد، وشيء من الاستعداد الذهني فإن البيئة الجيدة لا تؤدي إلى النجاح بمفردها.

• ما الذي يترتب - دكتور - على الاهتمام بالاستثنائي، وعلى إسقاط القاعدة بالمثال الشاذ من أضرار في حياتنا العامة؟

- الأضرار التي تترتب على إسقاط القاعدة بالأمثلة الشاذة كثيرة جدًا على المستوى الحضاري. إنَّ اللّٰه - جل وعلا - رتَّب أوضاع الوجود وأوضاع الحياة على أسس وقواعد وقوانين وشروط، وإننا لن نتقدَّم إلا إذا رضخنا للسنن وحاولنا فهمها على نحو عميق حتى لا نصطدم بها. كما أنَّ إخراج الأشياء عن طبائعها هو شيء عسير جدًّا ومكلف جدًّا، بل إنه خطر وقليل الجدوى.

أي منهجية مستقيم، وأي عمل سوف ينجح إذا كنا نلتمس لأنفسنا المعاذير والمسوغات التي تساعدنا على الهروب من توفير الشروط الضرورية للنجاح والإنجاز؟!

إنَّ إسقاط القاعدة بالمثال الشاذ هو إضفاء نوع من المشروعية المزيفة على دخول البيوت من نوافذها عوضًا من إتيانها من أبوابها الشرعية.

• هل المسؤول عن فصل القاعدة عن الاستثناء أو المطرد عن الشاذ هو العقل أو الثقافة؟ بمعنى هل تدرك أنَّ هذا شاذ أو مطرد عن طريق المعرفة والخبرة أو عن طريق العقل المجرد؟

- ليست في عقولنا خانات أو مخططات تعمل على أساسها في التفريق بين المطرد والشاذ، ولو كان فيها مثل

ذلك لكان عمل العقل في هذه الأمور يتم بناءً على أمور هي أشبه بالفطرة أو الغريزة، ولكن الوقوع في الخطأ في هذا الشأن عالميًا وموحدًا لدى جميع الناس، وهذا غير موجود في الحقيقة.

إنَّ المسؤول عن التفريق بين الطبيعي والاستثنائي هو الثقافة والتربية والتنشئة؛ ولهذا فإنَّ الخطأ الفكري يتفاوت في انتشاره بين مجتمع وآخر، وهذا يعني أنَّ الخلاص منه ممكن من خلال تحسين مستوى الفهم والمعرفة وتحسين سوية التربية الأسرية والمدرسية.

• • •

السؤال الثامن

نحن في العالم الإسلامي – وأنت تعرف ذلك – نشعر بالكثير من الإحباط والظلم؛ فقد مكث الاستعمار في بلادنا مددًا متفاوتة. وبعد خروجه ما زلنا نشعر أنه يتدخَّل أو يحاول التدخل في كثير من الأمور. وفلسطين السليبة شاهد قائم وشديد الوضوح على نفاق كثير من الدول الغربية لإسرائيل ومناصرتها لها. وهذا كله جعل كثيرين منا يشعرون أن تآمر الأعداء والخصوم هو مصدر كل أشكال التخلف التي نعاني منها. فماذا ترى في هذه الوضعية. وكيف يتم وضع الأمور في نصابها؟

– الحقيقة أنَّ هذا السؤال مهمٌّ للغاية؛ حيث إنَّ هناك شعورًا مهيمنًا بانسداد الآفاق وصعوبة القيام بأي إنجازات كبرى في ظلِّ الهيمنة الصناعية للعالم الصناعي عامة، وبسبب الهيمنة الثقافية والسياسية للدول الغربية خاصة، وللولايات المتحدة الأمريكية على نحو أخصّ. وهذا الشعور لا شكَّ أنَّ له أساسًا في التاريخ وله أيضًا أساس في الواقع، واحتلال العراق، وأفغانستان، والضغط المتتابع على السودان، ومناصرة اليهود في فلسطين في كل باطلهم.. كل هذه شواهد على صدق الشعور بالهيمنة والاضطهاد والوقوع في دائرة نفوذ الأجنبي.

وأودُّ أن أسلط الضوء على هذه القضية المهمة في عدد من النقاط:

أولًا: علينا أن نفهم أنَّ وجود الأعداء والخصوم في حياتنا هو شيء طبيعي؛ فاللَّه - جل وعلا - بثَّ في هذا الكون قانون (المدافعة). وهذا القانون إذا فهمناه على نحو جيد فإننا نستطيع استثماره على نحو مفيد.

• كيف يكون ذلك - دكتور - والمدافعة هي نوع من الصراع والخصام؟!

- يا أخي الكريم، وجود الأعداء يعني وجود التحديات ووجود التحديات يصلِّب لدينا روح المقاومة. وهذا ما يحمينا - بإذن اللَّه تعالى - من الاستسلام والذوبان والترهل الحضاري والتحلل الذاتي. وأنا أتصوّرُ أن تحصل بين العرب نزاعات حادة ومسلَّحة لولا التحدِّي الكبير الذي يمثله وجود اليهود اليوم في فلسطين؛ حيث جمع هذا الوجود العرب على حد أدنى من الاتفاق عوضًا عن الاحتراب الداخلي، أضف إلى هذا أنَّ العدو يتيح لنا فضيلة المقارنة ومعرفة عيوبنا حين نرى فضائل غيرنا، كما يتيح أيضًا رؤية ميزاتنا؛ حيث نرى عيوب غيرنا. وقد قالوا: (إن للشوهاء فضلًا على الحسناء)؛ لأنه لولا التشوُّه في الشوهاء ما عرف الحُسْنُ في الحسناء.. وقالوا: (وبضِدِّها تتميز الأشياءُ).

• لكن – دكتور – هذا الذي تقوله يحتاج إلى أن تكون معاييرنا صحيحة. وأن نملك قدرًا حسنًا من الحياد والموضوعية والتجرد. وهذا – فيما أظن – لا يكون متوفرًا في حالات الجهل والتخلف.

– كلامك في محله. لكنَّ الناس مهما بلغ بهم الجهل يظل لديهم إحساس ما بالخير والشر، والحسن والقبح، والصواب والخطأ. ولا شكَّ في أنَّ الناس لدينا اليوم يشعرون بأنَّ لدى الغرب عبقرية في التنظيم، نحن في حاجة إلى اقتباسها والتعلم منها، كما يشعرون بضرورة حصولنا على شيء من التقدم الصناعي الذي لدى الغرب، ويرون من خلال هذا وذاك ما لدينا من قصور وتقصير في هذين المجالين.

• نعم هذا في الحقيقة ليس موضع تردد لدى أحد.

– النقطة الثانية من النقاط التي أود توضيحها في شأن التفكير التآمري هي أنَّ علينا أن نكون موضوعيين وعادلين من خلال تفهم مطالب الآخر عن طريق تفهم مطالبنا.

حين كانت الأمة الإسلامية في حالة قوة توسَّعت في الأرض، وفتحت البلدان، وحكمت الشعوب. ونحن نرى اليوم في قادة الفتوح رموزًا للبطولة والتضحية والفداء والقوة والعدل أيضًا.

والغرب حين ملك أسباب القوة توسَّع هو الآخر أيضًا،

وبسط سيطرته على أجزاء واسعة من العالم. وهو الآن يستثمر قوته في تأمين مصالحه الخاصة.

• لكنَّ المسلمين - دكتور - أصحاب رسالة وهم فتحوا العالم، من أجل هدايته، وليس من أجل استغلاله، على حين أنَّ الغرب لَمَّا انطلق في حركته الاستعمارية كان يستهدف الشعوب المستعمرة.

- حين تناقش قضايا من هذا القبيل فإنَّ عليك أن تنظر إلى الأمور من أكثر من منظار، وتناقشها عبر وجهات نظر مختلفة.

فالغرب هو الآخر يعتقد، ويُقنع شعوبه بأنَّ حركته الاستعمارية كانت لتمدين الشعوب المتوحشة والنهوض بها؛ ولهذا فإنَّ كثيرًا من الغربيين لا يشعرون أنَّهم خانوا ضمائرهم حين انتشروا في الأرض وسيطروا عليها.

واليوم فكما نطالب حكَّامنا بأن يخدموا مصالحنا، وأن يحسِّنوا أسعار منتجاتنا في الأسواق العالمية أمام منتجاتهم ومصنوعاتهم فإن الغربيين يطالبون حكامهم بمثل ذلك.

حين يتصل بوش أو بلير أو أي زعيم غربي آخر بزعيم دولة أخرى من أجل الضغط عليه كي يقوم بإبرام صفقة لشراء تجهيزات أو منتجات بلده عوضًا عن شراء منتجات بلد آخر، أقول: حين يفعل ذلك، فإنَّه يشعر أنَّه يقوم بعمل

وطني يكسر من خلاله حالة الجمود والكساد الاقتصادي في بلده، كما يشعر أنّه بذلك يفي بوعوده الانتخابية لأولئك الذين منحوه أصواتهم.

إذن علينا أن ندرك أنّ بَين الأمم طموحات ومتطلبات وقواسم مشتركة، وعلينا أن ننظر إليها عبر معايير واحدة.

• كلامك صحيح لكن يبدو أنّ قبوله من قبل أشخاص كثيرين ليس سهلًا.

- لا شكّ أنّ بعض الناس لم يتعوّد النظر إلى الأمور بهذه الطريقة، بسبب طريقة التعليم التي تعلّم بها، أو بسبب المؤثرات الإعلامية، لكنّ القيام لله - تعالى - بالعدل والقسط بالإضافة إلى الحرص على فهم الأمور بشكل دقيق، يوجب علينا مثل هذه النظرة.

النقطة الثالثة في حديثنا حول التفكير التآمري أو نظرية المؤامرة تتعلق بدورنا نحن في المعادلة المختلّةِ في علاقتنا بالآخر، أو بالغرب تحديدًا.

وأنت تعرف أنّ مالك بن نبي رحمه الله كان قد أطلق فكرة (قابلية الاستعمار).

وهذه الفكرة من أكثر أفكاره - إن لم أقل: أكثرها - قبولًا لدى المسلمين.

وهي تقوم على أساس أنّ الذي شجّع ويشجّعُ الآخر

على غزوكَ والتدخل في شؤونك هو ما أنت عليه من ضعف واستخذاء واستعداد لقبول أجنبي.

إنَّ الأراضي المنخفضة دائمًا تغري الماء بالاتجاه نحوها.

والغرب حين يمارس نفوذه يكون كمن يحفر جزءًا من نفق تحت جبل، وأدواته لا تمكِّنه من الاستمرار في الحفر إلى الجهة الأخرى، ونحن في الحقيقة الذين نقوم بحفر الجزء المتبقي من جهتنا، مما يجعلنا نساعده على بلوغ مآربه فينا.

إن سقوط بغداد عام (٦٥٦هـ) لم يتمَّ بفعل تغلب حضارة المغول أو بسبب حسن تنظيمهم أو مهاراتهم القتالية.

إنَّ بغداد كانت ساقطة قبل دخول المغول بسنوات كثيرة بسبب المعاصي والانحراف عن منهج اللّه تعالى، وبسبب ذهاب هيبة الدولة وانفلات حبل الأمن وانتشار العصابات ومجموعات الشطار والعيارين وقطاع الطرق. إنَّ بغداد كانت ساقطة؛ لأنها كانت جسدًا من غير روحٍ ولا معنًى ولا مبدأ ولا مستقبلٍ.

ولهذا فقد صدق من قال: إنَّ بغداد حين دخلها المغول لم تكن سوى لوح من الخشب المنخور لو تُرك وشأنه لسقط بسبب التحلل الذاتي والانهيار الداخلي.

وحين سقطت الدولة العثمانية لم يكن السبب الرئيسي لسقوطها تآمر الغرب - مع أن تآمره كان قويًا فعلًا - وإنما

كان السبب يكمن في أنَّ العثمانيين لم يكونوا قادرين على استيعاب المعادلات الجديدة التي أوجدها التقدم العلمي والتقني في الغرب، فضلًا عن عجز الدولة عن إدارة شؤونها الداخلية وتنمية شعوبها على نحو جيد، وإدراك المعنى العميق لتطلعاتهم الجديدة.

ولا تخرج أحوالنا اليوم عن هذه الآفاق؛ فموقفنا العالمي الذي شكَّل نموذجًا للاستخذاء والغثائية، ونموذجًا للأمة التي يستخفُّ بها الصغير والكبير والشريف والوضيع، هذا الموقف يعود في ملامحه الكبرى إلى أننا غير قادرين على التقدم بما يكفي نحو المنهج الرباني الذي نؤمن به، كما أننا غير قادرين على تطوير أنفسنا وفق مفردات ذلك المنهج ووفق المعطيات والمتطلبات المعاصرة.

• أنا ألمح أنك لا تتردد في جعل المشكلة برمتها عبارة عن إخفاقات وانتكاسات داخلية.

- على المستوى التحليلي: للخارج دور ضئيل وهامشي، أما على المستوى العلمي فيجب أن ننظر إلى القضية على أنها داخلية؛ لأننا لا نستطيع إقناع الأعداء أن يعاملونا بعدل وأريحية. والقرآن الكريم يحرص على ترك هذا الانطباع لدينا، كما نجد ذلك واضحًا في قول الله تعالى: ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ [آل عمران: ١٢٠]. وكما في

قوله: ﴿ أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، فسوء الداخل ينعكس قطعًا على علاقتنا مع الخارج؛ حيث لا يمكن لذات ضئيلة أن تقيم علاقات عادلة ومتكافئة مع ذات قوية ومتفوقة.

ودعني أقول لأولئك الذين ألقت نظرية المؤامرة على أعينهم الكثير من الأغشية السوداء: إن الأمّة لو تُركت وشأنها – كما ينادي كثيرون – دون أي تدخل خارجي فإنَّ أحوالها لن تتغير كثيرًا.

• لماذا دكرور؟

– لأن تدهور أوضاعنا يعود إلى قصور ذاتي قبل كل شيء. لو كنت تقاتل عدوًّا بسيف ومعه أيضًا سيف، ونتيجة سوء صانعي سيفك انكسر نصله، ولم يبق في يدك سوى مقبضه واستطاع عدوك أن يتغلب بعد ذلك عليك، فمن الذي يتحمل مسؤولية ذلك؟ العدو الذي يسعى إلى قهرك ويجاهر بذلك، أو الذي صنع السيف المغشوش، أو الأمة التي لم تتعلم إتقان صناعتها؟ حمِّل المسؤولية لمن شئت، ولكن لا تحمِّلها لمن تصارعه وأنت ترجو التغلب عليه على نحو ذلك كنا نصارع الغرب بمفاهيم وأدوات وكانت الحرب بينه وبيننا سجالاً إلى أن جدد في نظمه وأوضاعه وأساليبه وأدواته، وجمدنا نحن على ما كان لدينا قبل قرون، وفي بعض الأحيان تراجعنا. وكانت النتيجة المنطقية والعادلة ما نراه اليوم!

إنّ من المهم أن ندرك أنَّ الغرب تركنا وشأننا في أمور كثيرة، كما أن حكّامنا تركونا أيضًا وشأننا في أمور كثيرة، وتصرفنا في كلتا الحالتين على نحو سيئ ومخجل، ما علاقة الغرب بالخريج الجامعي الذي لا يقرأ في السنة ولا كتابًا واحدًا؟ وما علاقته بالوضعية المخجلة للمكتبات العامة التي تصفر من قلة زوارها؟ وما علاقة الغرب أو الآخر بالمسلم الذي لا يصلي رغم الدعوات المتكررة له إلى ذلك؟ وما علاقة الغرب بالذي يزني ويشرب الخمر، ويتكلم بكلام بذيء في بيته؟ وما علاقة الغرب بالمدرس الذي لا يحضّر دروسه على نحو جدي؟ وما علاقته بالحاكم الذي يقبل الرشوة ويمارس الظلم؟ وما علاقته بالأم التي تهمل بيتها وتربية أبنائها لتقضي ساعات طوال أمام التلفاز أو على الهاتف أو عند الجيران والأقرباء؟ وما علاقة الغرب بالموظف الذي يتأخّر كلّ يوم ساعة أو ساعتين عن دوامه، وينصرف قبل انتهاء الدوام أيضًا بساعة أو ساعتين، وهو بين الحضور والانصراف لا ينجز عملًا، ولا يخدم مواطنًا؟ وما علاقة الغرب بالشاب الذي يقود سيارته بسرعة جنونية كاسرًا كل قوانين السير وآداب الطريق ومعرضًا حياته وحياة غيره للمخاطر؟؟

إنَّ هذه التصرفات، وأخرى كثيرة شبيهة بها. هي التي تشكل في نهاية المطاف موقفنا الحضاري بين الأمم، وهي

التي تجعل منا لقمة سائغة وسهلة المضغ والبلع، وهذا ما يغري الآخرين بالعدوان علينا.

النقطة الرابعة في تحليلنا للتفكير التآمري أو ما يطلق عليه (نظرية المؤامرة) تدور حول شيء مهم في نظري، وهو أنَّ التحديات التي تواجهنا تمنحنا فرصة إذا كنا في الموقع الصحيح وفي الاتجاه الصحيح. من المهم أن يدرك شبابنا خاصة أنَّ لدى كلِّ فرد من الأفراد، ولدى كلِّ مجتمع من المجتمعات إمكانية معينة لعمل شيء مفيد وصحيح، ولو كان ذلك الفرد سجينًا، أو كان ذلك المجتمع يقبع تحت نير الاستعمار.

إذا عرفنا موطئ القدم أو نطاق الإمكانية المتاحة، وأخذنا في العمل في إطار تلك الإمكانية فإنَّ العمل نفسه سوف يوسِّع ذلك وفق المبدأ الرائع الذي يقول: (إذا علمت ما هو ممكن اليوم فما هو مستحيل اليوم ممكن غدًا).

في الحرب العالمية الثانية دُمرت ألمانيا تدميرًا شبه كامل، وأصاب اليابان من الخراب الشيء الكثير. وبعد اثنتي عشرة سنة من إعادة البناء تحت ضوء الشموع أقام الألمان أول معرض لمنتجاتهم الجديدة. وذلك من أجل الإعلان عن تجاوز المحنة والعودة من جديد.

ألمانيا واليابان اليوم من أكثر الدول تقدمًا في العالم رغم

القيود الثقيلة والمذلة التي فرضت عليهما، وما ذلك إلا لأنهما أدركتا نقاط التفوق لديهما، واكتشفتا سبيلًا جديدًا لردِّ الاعتبار والانطلاق من جديد.

وهذه ماليزيا تقدِّم اليوم نموذجًا في التقدم التنظيمي والصناعي مع أنها دولة مسلمة. وفيها بنك لا ربوي وجامعة إسلامية، وفيها أحزاب إسلامية ودعوية. وزعيمها مهاتير محمد كان كثير الاستخفاف بالغرب وكثير التهجم عليهم. ومع ذلك فإنَّ البلد يتقدَّم، ويتجاوز الصعوبات على الرغم من كراهية الغرب لذلك. وقد ارتفعت صادرات ماليزيا خلال أقل من خمس عشرة سنة من ثلاث مليارات دولار إلى نحو ثمانين مليار دولار!

الخلاصة بكلمة واحدة: الداء داخلي والقصور ذاتي، وهذه الأمة لا تسقط بسبب ضغط خارجي، ولكن قد تسقط إذا تاه الدليل وحفيت الأقدام ونفد الزاد، وفي حديث مسلم، « **إني سألت ربي لأمتي ألا يهلكها بسنة** (أي قحط يصيبها جميعًا في آن واحد). **وأن لا يسلِّط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم** (أي يستأصلهم جميعًا). **وإن ربي قال: يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنَّه لا يرَدّ، وإني أعطيك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة، وأن لا أسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من أقطارها، حتى يكون بعضهم يُهلك بعضًا، ويسبي بعضهم بعضًا** ».

• أنا أشعر - دكتور - أنك قللت كثيرًا من شأن العامل الخارجي وشأن الأعداء المتربصين خارج الحدود، مع أنني أرى أن الآخرين يضيقون نطاق حركتنا، ويسدون الكثير من المنافذ علينا؟

- أنا لا أنفي، ولم أنف وجود العامل الخارجي فيما نحن فيه، هو موجود - كما أشرت إلى ذلك مرارًا - لكنَّ المنطق العملي والاندفاع للبحث عن مخرج من النفق المظلم الذي نحن فيه، يُحتِّمان عليَّ أن أحاول تلافي أشكال النقص الذي لديَّ، وأن أعمل أفضل ما يمكن عمله، وأطلب مع ذلك من اللّٰه المعونة والتوفيق. وهذا ما تفعله الأمم العظيمة فإنَّها حين تعرَّض لضغوط من الخارج تسعى إلى تحصين الداخل؛ لأنه هو العامل الحاسم في إيقاف عدوان الخارج.

والانشغال بالعدو الخارجي غير مفيد، وانتظار المعونة من الدول المحبة للسلام - كما لغونا كثيرًا - والأمم المتحدة، وما يسمى بالمجتمع الدولي... هو إضاعة للعمر، وفرصة للهروب من الواجبات والاستحقاقات الداخلية.

وقد آن لنا أن ندرك أنَّ العلاقات لا تدار من خلال الصداقة ولا الرحمة ولا المروءة. وإنَّما تدار على أساس معايير، بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنًى.

وأذكر أنه خلال النزاع الذي بين الأرجنتين وبريطانيا على جزر (فوكلاند) قيل وقتها لرئيسة وزراء بريطانيا

(مارجريت تاتشر): لماذا لا تلجأون إلى مجلس الأمن لفضّ النزاع عوضًا عن اللجوء إلى الحرب؟ وأذكر أنها قالت ما معناه: قد تركنا مجلس الأمن للعرب ليرفعوا إليه شكاواهم، أما نحن فننتزع حقوقنا بأيدينا.

وأظنُّ أنَّ في هذا الكلام من الإهانة والوضوح ما يكفي..

• • •

السؤال التاسع

كثيرًا ما نواجه في حياتنا أشخاصًا ليسوا أميين ولا محرومين من قدر متوسط من المعرفة، ومع هذا فإنهم يفكرون تفكيرًا سطحيًا جدًا، ويحاكمون الأمور محاكمة خاطئة، كما أنهم يقومون بتحليل ظواهر شديدة التعقيد تحليلًا مسرفًا في التبسيط، وسؤالي هو: كيف يمكن لنا شرح هذه الظاهرة للقارئ الكريم؟ وكيف يمكن لنا أن نجعله يقف على أسبابها الجوهرية؟

– الحقيقة أن التفكير السطحي موجود في كل أنحاء العالم، وهو سمة من سمات قصور العقل البشري.

كم رأيت مختصين بارعين في اختصاصهم ومتفوقين، ولكن إذا خرج الواحد منهم عن اختصاصه وجدته يفكر في كثير من الأحيان تفكيرًا سطحيًا.

والذي يهمنا هو تشريح هذه الظاهرة وبيان أسبابها.

• أنت الآن برّدت قلبي حين ذكرت أن المشكلة عالمية.

– لا شكّ أنّها عالمية، لكنّ تأثيراتها السلبية على التقدم العقلي مرهونة بمدى عمقها وبنسبة انتشارها، وبحجم نجاة النخبة والصفوة منها.

• هذا صحيح.

- لو أردنا أن نعرّف التفكير السطحي بتعريف إجرائي لأمكن القول: إنّه إعمال العقل على نحو مستعجل في المعطيات القريبة والشكلية لظاهرة من الظواهر بعيدًا عن تعقيداتها وتفريعاتها، ثم الوثوق بنتائج ذلك التفكير والقيام بتعميمها على نحو متعسف.

وأنا أعلم أنَّ هذا الكلام لا يفهم من غير توضيح بالأمثلة والبراهين، وسوف أذكر بعض التفصيلات الأساسية.

• لا شك، ولا سيما أن هذه المسألة لا تخلو في أصلها من شيء من الإبهام والتعقيد.

- دعني أقول: إنَّ صاحب التفكير السطحي ينظر إلى كلِّ الأشياء على أنها بسيطة وسهلة.

وهو يعتقد - على نحو مبالغ فيه - بأنَّ الحصول على المعرفة الجيدة حول ما يرغب في معرفته ليس أمرًا صعبًا.

ولهذا فإنّه يعتقد أنّه قادر على إصدار الأحكام، وقادر على رؤية الأشياء على ما هي عليه.

وهذا ما يجعله يندفع إلى قول كثير من الكلام الذي يفتقر إلى الدِّقة والصواب والعمق.

والذي ثبت من خلال النظر المتأنّي أنّه ليس هناك شيء بسيط.

وكل أمر من الأمور المعنوية والمادية مرتبط بشبكة من العلاقات التي تربطه بغيره، فيصبح امتدادًا لأشياء كثيرة، وتصبح أشياء كثيرة امتدادًا له.

والعزل والفصل بينها عند التدقيق غالبًا ما يكون متعسفًا.

أضف إلى هذا أنَّ كلَّ حقيقة من الحقائق عبارة عن طبقات عدة، وكلما تعرَّفنا إلى طبقة تحتاج إلى اكتشاف ومعرفة.

وتطرح أسئلة علينا، تحتاج إلى أجوبة.

وكثيرًا ما نكون عاجزين عن العثور عن أجوبة لتلك الأسئلة أو بعضها، وذلك بسبب أنَّ في كل مخلوق من مخلوقات اللَّه - تعالى - عنصرًا غيبيًّا على الأقل حجبه سبحانه عن عباده، واستأثر بعلمه.

ولهذا فإنَّ هذه الدنيا سوف تفنى وتنتهي وتظل هناك أسئلة كثيرة، ليس لدينا عنها أية أجوبة.

• يبدو أننا حتى نستوعب كل هذا الكلام نحتاج منك أن تذكر لنا بعض الأمثلة، وإلا نكون قد زدنا الأمر إبهامًا.

- سأضرب لك مثالين: الأول على شيء مادي، والآخر على شيء معنوي: القلم الذي تكتب به الآن من أي شيء مصنوع؟ قد تبادر وتقول: هو من الحديد، ولونه أسود.

هذه هي الطبقة الأولى من حقيقة القلم بعيدًا عن أي

امتداد له. وهذه المعرفة محدودة جدًا ومن خلالها قد لا يتميز قلم على قلم آخر، وقد لا يكون في هذا الكلام ما يغري باقتنائه، أو يُزهِّد فيه؛ ولهذا فإنك لا تستطيع أن تقول لأي واحد من الناس: أنصحك باقتناء هذا القلم؛ لأنَّ لونه أسود أو لأنه صنع من حديد.

• تريد أن تقول: هذه معرفة سطحية ومحدودة القيمة؟

- نعم إذا مضيت في توجيه الأسئلة وقلت لك: هل مع الحديد عنصر آخر داخل في خلطته الأساسية؟ فسيكون الجواب لديَّ ولديك هو: لا ندري ذلك؛ لأننا لسنا من أهل الاختصاص بصناعة الأقلام.

لكن الجواب ربما يكون عند أفراد من المصنع الذي صنع القلم. فإذا قلنا: ما متوسط بقاء هذا القلم في العمل أو في الكتابة لدى الذين اقتنوه، أو قلنا: كم صفحة أو كم كلمة يمكن أن تكتب به قبل أن ينفد حبره الذي زوده به الصانع؟ فستقول فورًا: لا أدري، والجواب على هذا السؤال ربما كان مجهولًا لدى صانعيه أنفسهم.

إذا قلنا: كم شخصًا اقتناه ممن يحسن الكتابة، ولا يقع في أخطاء إملائية أو لغوية؟ فسيكون الجواب: لا ندري، وليس هناك جهة في الأرض تعرف الجواب. وهكذا يمكن أن نطلق عشرات الأسئلة المتعلقة بهذا القلم دون أن يكون لدينا أجوبة عنها.

• جميل، نريد الآن مثالاً على شيء غير مادي أو غير محسوس.

- نعم، حين يخفق شاب في دراسته الجامعية فإنَّ كثيرًا من الأقرباء والأصدقاء والجيران... سوف يتكهَّنون حول أسباب الرسوب، وسوف تسمع تفسيرات عجيبة تدلُّ على الرؤية السطحية والتفكير السطحي.

هذا يقول: السبب في إخفاقه هو المدرس الفلاني الذي عقَّدَهُ من المادة الفلانية. أو لم يدرِّسه إياها بشكل صحيح. وثان يقول: السبب حبه للنوم. وثالث يقول: شَغَلَهُ والده عن المذاكرة باستقبال ضيوفه. ورابع يقول: إنَّ أباه أجبره على دراسة تخصص لا يحبه، وخامس يقول: قرناء السوء هم السبب فيما حدث... وهكذا كل واحد من هؤلاء المهتمين بظاهرة رسوب الشاب، فلان يظنُّ أنَّه وقع على السبب الحقيقي لذلك الرسوب، وكلٌّ يعتزُّ برأيه ويرى أنَّه تفسير مقنع. ولو سألنا ذلك الشاب عن سبب رسوبه يذكر لنا سببًا يخالف كل هذه الأسباب. وهذا التعليل الوحيد منتشر فينا منذ قرون طويلة على نطاق واسع. ولو أنك رجعت إلى كتاب (أم القرى) للكواكبي والذي سجَّل فيه وقائع المسلمين وعللهم للعثور على أدوية وعلاجات وحلول لتلك العلل. لو رجعت إلى ذلك الكتاب لوجدت أنَّ معظم وفود العالم الإسلامي المتخيَّلة كانت تتحدَّث عن تعليلات فرديّة.

فلا يكادون يتحدثون عن علتين أو ثلاث علل لتخلف المسلمين. أو يتحدثون عن عدد من الأدوية لعلاج أزماتهم ومشكلاتهم.

ولو عدنا إلى حياتنا العملية اليوم لوجدنا المشكلة نفسها، فهذا يقول: أزمة المسلمين أخلاقية. وثان يقول: سياسية. وثالث يقول: تربوية. ورابع يقول: علمية تقنية. وخامس يقول: الأعداء هم المشكلة ولو أنهم تركونا وشأننا لما كنا هكذا. وسادس يقول: إخفاق الحركات الإسلامية في عملها هو سبب ما نحن فيه... وهكذا وهكذا... مع أنك حين تتأمل كثيرًا بعمق تجد ارتباطات وثيقة وتداعيات منطقية قوية بين كثير من الأسباب، سواء في رسوب الشاب فلان أو في تخلف العالم الإسلامي.

• عفوًا – دكتور – أين يكمن مركز تقديرك للسطحية في هذه التعليلات؟

– تكمن السطحية في ذكر سبب واحد لظاهرة معقدة كإخفاق أمة، وإلى الوثوق بالظنون والمجادلة عنها وعدم امتلاك رؤية تركيبية تحليلية للأشياء.

التفكير السطحي ينزع دائمًا إلى إدراك بعض مفردات الظاهرة وبعض عللها، وكلما كانت الظاهرة أكبر حجمًا وكانت العناصر المؤثرة فيها أكثر تنوعًا، احتاجت إلى تفكير

أكثر عمقًا وأكثر تعقيدًا، واحتاجت إلى دراسات ومعلومات وبحوث متقنة وذكية.

• ما الذي يترتب على التفكير السطحي، في مسألة تخلف الأمة الإسلامية: مثلًا؟

– الذي يترتّب عليه شيء خطير، هو المعالجة السطحية. حين يكون هناك شخصٌ مصابٌ بالسرطان، ويحتاج إلى عناية فائقة ودقيقة ومتقدمة، ثم يأتي من يقول: أعطه حبة مضاد حيوي أو أعطه مسكِّن، أو دعه وشأنه، فيشفى من تلقاء نفسه.. فهذا يعني استفحال المرض وحدوث شيء يشبه الجريمة الشنيعة.

ولا يصح أن يغيب عن البال أنَّ التحليل السطحي لأي مشكلة يجعل الحلول سطحية، ويجعل أعداد الناس التي يمكن أن تشترك في مواجهة تلك المشكلة محدودة، كما يجعل الوسائل والأساليب التي يمكن استخدامها في معالجتها محدودة أيضًا؛ فالذين يقولون: إنَّ أزمتنا تربوية يرون أنَّ علينا أن نبذل كل جهودنا في المجال التربوي. وإذا طاوعناهم في ذلك فسنجد أنَّ أعدادًا محدودة من الناس، يمكنها الإسهام في انقشاع أزمتنا الحضارية. وهذا يعني بقاء أعداد هائلة من المسلمين في إجازة مفتوحة عاطلين عن تقديم أي شيء ذي نفع عام. وسيكون الأمر مختلفًا جدًّا حين نقول: إنَّ معظم مجالات الحياة لدينا يعاني من التخلف، وأنَّ بين

تلك المجالات ارتباطات وانعكاسات قوية؛ ومن ثم فإن كل مسلم في إمكانه أن يقدم لهذه الأمة شيئًا إيجابيًا نافعًا، مهما كان صغيرًا.

• أعتقد أنَّ الصورة الآن صارت واضحة، ولكن لن تكتمل الفائدة ما لم نعرف الأسباب التي تجعل الناس يفكرون تفكيرًا سطحيًا. وإذا استطعنا توضيح تلك الأسباب على نحو جيد. فربما نقدم خدمة جليلة للقارئ الكريم كي يتجنَّبها ويعمل على الفكاك من أسرها وقيودها.

- الأسباب التي تجعل الواحد منا يفكر تفكيرًا سطحيًا عديدة، وأرجو أن تمنحني الوقت الكافي لشرح ثلاثة منها: لأنَّه من غير الإفاضة في شرحها، فسيكون من الصعب استيعابها.

• تفضل.

- أول تلك الأسباب يعود إلى الفقر في المعلومات، وإلى قلَّة الخبرة؛ حيث إنَّ الخيال مهما كان خصبًا لا يستطيع أن يذهب بعيدًا عن حدود الخبرة. وهل كان في إمكان الناس الذين عاشوا قبل مائتي سنة من الآن أن يتخيَّلوا عُشرَ ما نراه اليوم؟!

وهكذا فإنَّ الذي لم يقرأ سوى كتاب واحد في التوحيد أو الفقه أو التاريخ لا يستطيع أن يشير على من استرشده إلى

قراءة كتاب في أحد هذه العلوم، إلا بما عرفه؛ في حين أنَّ الباحث المطَّلع في علم من العلوم يستطيع أن يتحدَّث عن كتب سهلة وكتب صعبة وكتب متوسطة في الصعوبة، كما يستطيع أن يتحدَّث عن كتب مسهبة وكتب موجزة، وكتب مزودة بتحاليل نقدية وبراهين عملية، وأخرى فيها تعصب لوجهة نظر اجتهادية... إن معرفته بمصادر تخصصه ومراجعه جعلته يدرك الكثير من التفصيلات حولها، ويدرك مع تلك التفصيلات صعوبة إصدار الأحكام عليها، كما يدرك سطحية مَن يقول: إن كتب التخصص الفلاني، كلها صعبة أو كلها سهلة أو كلها عميقة أو كلها مسهبة...

إن ضعيف الفهم والمعرفة في تعقيدات العمل الجراحي، يتعجب من موت مريض أثناء عملية تجرى له، ويأخذ في كيل التهم للجرّاح بالجهل والتقصير. وإذا نجحت عملية جراحية أخذ بكيل المدائح، حتى إنَّه ليستطيع القول: إنَّ ذلك الطبيب هو أعظم جراح على وجه الأرض. إنه بسبب ضآلة معرفته الطبية، لا يعرف أنَّ في كل عملية جراحية نسبة مخاطرة، تتفاوت من شخص إلى آخر، ومن عملية إلى أخرى. ويجهل أنَّ الحكم بعظمة الجراح، لا ينبغي أن يتمَّ إلا من خلال أهل تخصصه. فهم يدركون حيثيات هذا الحكم، ومتى يستحقه الطبيب.

وهذا في كل المجالات فنحن نفكرُ تفكيرًا سطحيًا كلما قلَّ زادُنا المعرفي في المسألة التي نتحدَّث عنها. وبهذا المفهوم ومن هذا المنطق فإنَّ مجالس سمرنا ومذاكرتنا تضج بالتفكير السطحي وبالمفكرين السطحيين؛ لأنَّنا نتحدث في الجلسة الواحدة في عشر موضوعات، وربما كان معظمنا لم يقرأ ولا كتابًا واحدًا في أي موضوع من تلك الموضوعات، والغريب أنَّ الجاهل يستطيل في الكلام، ويطلب من الوقت للحديث أكثر مما يفعل العالم أو طالب العلم!!

ولذا فإننا نشعر أننا من خلال مئات، بل ألوف الجلسات والمجالس لم نخرج بأي حلول يمكن الاعتماد عليها؛ فنحن بسبب قلَّة زادنا المعرفي وبسبب ضعف خبراتنا كمن يخضُّ الماء ليعثر على شيء من الزبد أو الدسم. والمشكل أننا كثيرًا ما نختلف على غير أساس، وكثيرًا ما تختلف قلوبنا من غير مسوغ!

ورحم اللّٰه من قال: (لو أمسك عن الكلام من لا يعرف لارتفع الخلاف).

• ما تقوله دقيق وجميل. لكن لو أردنا الالتزام به لوجب أن نمتنع عن الحديث في معظم الأمور، ولخلت مجالس سمرنا من الكلام، فما العمل؟

- العمل يتلخص في أن نؤسس في تقاليدنا الثقافية (علم

الجهل ﴾ حيث ينبغي أن يشعر كل واحد منا أنَّ الأصل فيه أنّه جاهل إلى أن يتعلَّم، وأنَّ معرفته بأي قضية ستظلُّ قريبة من العدم ما لم يقرأ ويتأمَّل ويحاور فيها على نحو كافٍ ووافٍ، هذا أولًا.

وعلينا ثانيًا أن نؤصل في ثقافتنا الشعبية احترام الخبرة واحترام أهلها. وذلك الاحترام هو الذي يحجزنا عن أن نخوض فيما لا نحسن، ويحملنا على الإنصات للأعرف والأعلم والأخبر.

• لنعد دكتور - لو سمحت - إلى ذكر باقي الأسباب التي تدفع الناس إلى التفكير السطحي.

- نعم. السبب الثاني من أسباب التفكير السطحي يتركز في التقاليد القائمة على الثقافة الشفهية (أي الثقافة التي يتناقلها الناس عن طريق السماع وليس عن طريق القراءة والكتاب).

فنحن أمة ما زالت نسب الأمية لديها عالية، وهي لا تقل عن (٤٠٪) في المتوسط. والإنسان الأمي والإنسان الذي نال شهادة متوسطة لكنه هجر الكتب منذ زمن بعيد، هذا الإنسان يفكِّر على نحو سطحي؛ لأنَّه لم يتعوَّد التفكير عبر الكتابة وعبر استخدام الورقة والقلم والقراءة حول المشكلة التي يرغب في الحصول على حلٍّ لها. إنه حين يحاول فهم

مشكلة يفكّر فيها، وهو مستلقٍ على ظهره، أو وهو يمشي إلى مزرعته.

إنّه لا يخطر في باله أن يجلس على المكتب، ويمسك بقلم (طبعًا الأمي لا يستطيع أن يفعل شيئًا من هذا)، ويبدأ بتسجيل ما يخطر في باله حول تلك المشكلة، ولا يقوم بتصفيته وغربلته، ومن باب أَوْلَى هو لا يفتح كتابًا أو كتبًا كي يزداد بصيرة فيما يفكر فيه، كما أنه لا يلجأ إلى خبير يستشيره أو يحاوره.

تصوَّر رجلًا يفكّر في كيفية تربية ابنه الموهوب أو ابنه الصغير، أو يفكّر في كيفية الاستفادة من وقته إلى الحدّ الأقصى. وإذا فرضنا أنَّ ذلك الرجل يملك إمكانات ذهنية كبيرة واستطاع التوصل إلى طريقة فذّة في تربية ابنه الموهوب - مثلًا - وكانت تلك الطريقة تحتوي على عشرين مفردة، وكل مفردة تشتمل على نقطتين أو ثلاث نقاط.

فكيف يمكنه الاحتفاظ بهذا الأسلوب المعقد في ذاكرته وتربية ولده الموهوب؟ إنّه يعرف أنَّ ذاكرته لا تسعفه بالاحتفاظ بحل مؤلَّف من (٤٠) ملاحظة، ولا سيما أنَّ تلك الملاحظات سيستخدمها على مدار سنوات عديدة.

ولهذا فإنّه يختزل تلك الملاحظات، التي قد تكون قيّمة وضرورية، إلى أربع أو خمس ملاحظات، وهذا الاختزال هو

الذي يجعل حلَّهُ أو طريقته التي اهتدى إليها سطحية وغير وافية بالغرض.

وقل مثل هذا في كل مجالات الحياة.

• ألا تعتقدون أنه لا يمكن لأمي أن يصل أصلًا إلى حل مكوَّن من عشرين أو ثلاثين نقطة بسبب الفقر اللغوي الذي لديه؟

– أنا معك تمامًا؛ فالمرء حين يفكر يستخدم اللغة، والعامي أو الأُمي أو متدني الثقافة فقير في حصيلته اللغوية؛ ولهذا فإنه فعلًا لا يستطيع الوصول إلا إلى حلول معقدة تستدعي استخدام كلمات كثيرة في نسق منطقي مترابط.

ولكن لو فرضنا أنه تجاوز هذه العقبة فإنه لا يستطيع الاحتفاظ بذاكرته بحل معقد في ذاكرته.

السبب الثالث من أسباب شيوع التفكير السطحي بيننا يتمثل في أننا نفهم الأشياء بعيدًا عن بيئتها وعن العلاقات التي تربطها بغيرها وبعيدًا عن مواقعها التراتيبية في سلسلة المعالجات الشاملة المتتابعة.

والمعروف في المجال الحضاري أنَّ الشيء الواحد إذا نظرت إليه وجدته سببًا أو مقدمة لشيء آخر.

وإذا نظرت إليه من زاوية ثانية وجدته مسببًا أو نتيجة لشيء سابق عليه.

• مثال لو سمحت - دكتور - على هذا.

- نعم. انظر مثلًا إلى العلاقة التي تربط التربية بالاقتصاد، فنحن حين نقع في أزمة اقتصادية نسارع إلى معالجتها بأدوات اقتصادية؛ مثل مكافحة البطالة وحثّ الناس على الاستهلاك من أجل تحفيز الطلب؛ ومثل مكافحة التضخم واستدراج الاستثمارات الأجنبية وإصلاح النظام الضريبي إلى آخره..

ولا نفكِّر، أو لا يفكر الاقتصادي - في غالب الأمر - في مساهمة التربية في الأزمة إياها؛ إذ إنَّ القصور التربوي يساعد على انتشار الكذب والرشوة والسرقة والخيانة والاحتيال والغش وأكل أموال الناس بالباطل والمماطلة في أدائها...، كما يبعث على التقصير في أداء الأعمال على نحو جيد، وعلى عدم الانتظام في الوظائف.

• هل هذا يعني أنَّ التربية الممتازة تحول دون وقوع هذه الأشياء؟ وكيف؟

- لا شكَّ في أنَّ التربية تقوي الحسَّ الأخلاقي لدى الإنسان، وهذا ما يجعله يندفع في اتجاه سلوكه في هدي الأخلاق التي نشِّئ عليها، كما يجعله يحاول تحقيق مصالحه في إطار المبادئ التي يؤمن بها.

وهذا بالطبع لا يقضي على الجريمة، ولكنَّه يحد منها إلى حدٍّ بعيد. وإذا رجعت إلى العصور الإسلامية الأولى وجدت

هذا واضحًا إلى حد التألق. وإذا نظرت اليوم كذلك في أوضاعنا المعاصرة وجدت أنَّ الأمراض الخلقية والسلوكية التي أشرت إليها تنتشر في بيئات وأوساط معينة، وتقلُّ في أوساط أخرى.

والعامل الحاسم الذي أحدث الفرق قد يكون هو التربية.

والآن أعود إلى ما كنت فيه من الحديث عن العلاقة الجدلية بين التربية والاقتصاد.

• تفضل.

- الاقتصاد حين يسوء، وحين تستحكم الحاجة بالناس، فإنَّه يضغط على نحو سلبي على التربية، ففي حالة انتشار المجاعة أو صعوبة العيش؛ حيث يجد الناس مشقة في تأمين الضروريات، فإنَّ الوعي البشري يبدي براعة ظاهرة في إنتاج المعاذير والمسوغات والتأويلات التي تجيز للإنسان الكذب والرشوة والسرقة...

على أساس أنَّ الضرورات تبيح المحظورات، وعلى أساس أنَّ في المجتمع ظلمة عُتاة كبارًا ينهبون خيرات البلد، ومن حقِّ الصغار أن يستردُّوا - بأي طريقة - شيئًا مما نهب منهم.

وهذا من جهته يؤدي إلى مزيد من التدهور في الاقتصاد وانهيار رأس مال المجتمع من الأمانة والثقة والاطمئنان، وهذا

يدفع في اتجاه الانكماش الاقتصادي وهروب رؤوس الأموال وهكذا...

الذي لا يعرف هذه الجدليات والعلاقات، ويحاول بحث أسباب أزمة تربوية أو اجتماعية أو أخلاقية فإنَّه لا بدَّ سيفكر على نحو سطحي، وستكون رؤيته لأسباب هذه الأزمات عمشاء أو حولاء.

• هذا واضح وملموس، لكن كيف يمكن كسر هذه الجدلية، والخروج من هذه الدائرة المغلقة في هذا الشأن؟

- لا شكَّ أن هذا لا يخلو من صعوبة؛ حيث تفقد التربية البيئة الملائمة لها، ويفقد الاقتصاد الأساس الأخلاقي لعمله، لكن تظل هناك إمكانية للقيام بشيء ما.

وعلى نحو عامٍّ فإنَّ كسر الجدليات الرديئة هو من مهام الرواد النجباء أهل التضحية والبذل والعطاء الذين يملكون الأمل بانجلاء الغمَّة، ويملكون الطاقة على العمل في الظروف الصعبة، ويملكون روح الصمود في وجه الرياح العاتية.

ويحتاج هذا كذلك إلى أن يعمل المربون أفضل ما يمكن عمله، ويعمل الاقتصاديون كذلك أفضل ما يمكن عمله.

وأعتقد أنَّ الصحوة المباركة التي نتفيأ ظلالها اليوم قدَّمت البرهان على إمكانية إنجاز شيء ذي قيمة مهما كانت الأوضاع غير ملائمة.

كما يقدِّم إخواننا في فلسطين نموذجًا متقدمًا في التضحية واستمرار البذل ومقاومة المحتل الغاشم في أصعب ظروف يمكن أن يعمل فيها بشر.

هذا صحيح ونسأل اللّه أن يثبتهم، وأن يعين الأمة على مساندتهم ومساعدتهم.

• • •

السؤال العاشر

من الملاحظ – دكتور – في الوسط الإسلامي عامة. والعربي خاصة، تحكُّم العاطفة بالعقل والذهاب بعيدًا مع الميول والرغبات والأمنيات إلى درجة غياب الحاكمة العقلية الراشدة في كثير من الأحيان. وسؤالي يدور حول مدى انتشار هذه الظاهرة، وحول علاقتها بالتخلف الفكري. وحول أسبابها وسبل معالجتها؟

– الإنسان كائن عاطفي والروح والعاطفة هي مكمن وجوده الحقيقي، وكثير من المواقف الحياتية يحدث بدافع من العاطفة، ولهذا فإن المرء في حاجة إلى تدريب خاص حتى يتعلّم كيف يحب وكيف يكره وكيف يبتهج وكيف يحزن.

أما التفكير الراشد القائم على معطيات ومقدمات صحيحة فإنّه ليس كذلك. إنّه يقف على الطرف المقابل؛ إذ مهما تلقّى الإنسان من علم ومهما جاهد نفسه من أجل التحكم بعاطفته فإننا نجد أنّ العاطفة لا تعدم الفرصة للتغلب على العقل، وجعله يُصدِر أحكامًا بوحي منها.

• هل تريد أن تقول: إن غلبة التفكير العاطفي شيء طبيعي، أو هو أصل لدى الإنسان؟

– تمامًا هذا ما أريد قوله. وعلماؤنا يقولون: الشيء إذا

جاء على أصله لم يُسأل عنه؛ ولهذا فإنَّكَ تجد أنَّ تحكُّمَ العاطفة بالمواقف الحياتية المختلفة أكثر انتشارًا لدى البيئات البدائية، وتلك التي لم ينتشر فيها العلم، ولم تنتشر فيها التقنية على نحو كافٍ. كلّما أوغل الناس في الحضارة تولّدت في حياتهم ضرورات تحملهم حملًا على أن يُحيدوا عواطفهم أو يتجاهلونها من أجل الفهم الموضوعي للأشياء، ومن أجل رعاية المصالح على نحو حسن. لا يعني هذا - بالطبع - انتصارًا حاسمًا للعقل، لكنَّه يعني تقليل التحكم العفوي للعاطفة بالعقل، وحين ترى إنسانًا يعيش في بيئة متقدِّمة، ويرضخ لعواطفه فإنَّ ذلك كثيرًا ما يكون عن وعي منه، أي يكون عمله نوعًا من الرضوخ للهوى والمصلحة أكثر من أي شيء آخر.

• **نحن جميعًا نقول: إنه ينبغي علينا أن نجعل عواطفنا وانفعالاتنا معزولة عن أحكامنا العقلية وعن طرق إدراكنا للأشياء، فهل هذا ممكن دائمًا؟**

- من المؤسف أن أقول: إنَّ ذلك غير ممكن دائمًا.

• **لماذا؟**

- العامل الأساسي في هذا هو النظام اللغوي الذي نستخدمه في الإدراك وفي التعبير وفي تداول المعاني. هذا النظام مصاب أصلًا بالقصور الذاتي: ولا سيما حين نتحدَّث

عن أمور معنوية؛ مثل: الحب والكره، والشجاعة والجبن والنشاط والفتور... وهذا ليس خاصًا بأي لغة، وإنما هو موجود في كل لغات العالم.

• هل هذا يعود إلى ضعف التحكم بالنظام اللغوي، أو إلى جموده، أو هناك أسباب أخرى؟

– القضية لا تخلو من شيء من الصعوبة والتعقيد. ولا شكَّ في أنَّ النظام اللغوي ينمو، ويعيد تشكيل ذاته بطريقة غير واعية وغامضة، وهذا يجعلنا نركض خلفه عوضًا عن أن نقوده، ونسير أمامه. نحن في إدراكنا للأشياء، وفي تعبيرنا عنها نستخدم ألفاظًا ذات دلالات. وكثير من المدلولات هو عبارة عن مصطلحات وتعريفات غير ناضجة، ويصعب ضبطها على نحو جيد. وأيَّة قضية تقوم على تعريفات غير واضحة يكون التعامل معها شائكًا ومرتبكًا.

مفردات اللغة – يا أخي – ليست مجموعة من الأرقام والرموز التي نستخدمها في الجبر أو الكيمياء، إنَّها تتَّسم بمرونة فائقة، وبسبب مرونتها تكون مستعدَّة لأن تُحمَّل بأهوائنا وميولنا الذاتية، وهذا ما يفسح للعواطف أن تتدخل على الخط، وتشوش بالتالي على أحكامنا العقلية.

• أريد مثالاً – لو سمحت – على – هذا.

– يمكن أن نقرأ لمؤلف من المؤلِّفين. وحين نُسأل عن رأينا

في ذلك الكتاب فإنَّ من الممكن أن يقول أحدنا: إنَّه جريء. ولا يأبه بكلام المعارضين. وأن يقول ثانٍ: إنَّه منفتح. ويقول ثالث: إنه متحرِّر. ويقول رابع: إنَّه وقح. ويقول خامس: إنَّه مخرِّب لفكر الأمة من الطراز الأول. ويقول سادس: كاتب صريح جدًّا. ويقول سابع: هو مؤلف غوغائي. ويقول ثامن: استعراضي. وهكذا.. وإذا تأمَّلت فيما يقال في أي كاتب مثير للجدل، له معجبون وأعداء، فإنَّك ستجد الناس يقولون فيه مثل هذا الكلام وأكثر. هل هذا الوصف المتعدد من هؤلاء الناس نابع من إدراكهم لطبيعة الكتاب الذي قرأوه؟ أو هو نابع من الانتماء الفكري أو الحزبي المختلف لهؤلاء القراء؟ أو هو نابع من خلفيات شخصية وعلاقات ومواقف خاصة، تربط الكاتب ببعض هؤلاء القراء أو بهم جميعًا؟ أو هو نابع من كل ذلك؟

ولو أتنا جئنا بأفضل ثلاثة متخصصين بالموضوع الذي عالجه ذلك الكاتب لما استطاعوا اعتماد وصف واحد للكاتب من بين الأوصاف الثمانية التي ذكرناها؛ لأنَّهم قد يعانون من عين المشكلة التي عاناها القراء العاديون.

وإنَّ دلالات الحقيقة والمجاز واختلاطها، تسهِّل للأهواء التغلغل في التعبيرات والأحكام. وعلى سبيل المثال فإنَّ اللغة تسمح بما فيها من مجاز لقائد عسكري أن يقول عن عدوه: إنَّه ليس من البشر، وليس إنسانًا ولا يستحقُّ الحياة، وموته

أنفع للبشرية من حياته. إنَّه بهذه العبارة يمكن أن يسهِّل على جنوده عمليات القتل للأبرياء والنساء والأطفال الذين ينتسبون إلى ذلك العدو.

وأنت تعجب من صلف اليهود وتكبرهم وعنادهم وقفزهم فوق كل المعايير والمواثيق الدولية، وتعجب من إجرامهم في قتل الفلسطينيين، ولكن إذا قرأت بعض الخطوط الإستراتيجية في إعلامهم وفي دعاياتهم السياسية، فإنَّك تكشف لماذا يحدث ذلك.

• من مثل ماذا؟!

– هم يقولون: إنَّ اليهود شعب اغتصبت أرضه، وإنَّ الأرض الفلسطينية أرض بلا شعب؛ لأنَّهم لا يعدون الفلسطينيين آراميين بمعنى الكلمة؛ ولهذا فإنَّهم يقتلون، ويهدمون المنازل، ويغتالون الكبار والصغار بدم بارد دون شعور بأي حرج.

• نريد الآن – دكتور – أن تسلط الضوء على بعض المظاهر التي يتجلى فيها التفكير العاطفي أو سيطرة العاطفة على العقل، وأن نسلط الضوء كذلك على علاقة ذلك بالتخلف الفكري.

– دعني أجب على الفقرة الثانية أولاً.

• تفضل.

- هناك إصرار شديد في الرؤية الإسلامية وفي المنهج الرباني الأقوم على بلورة الحقائق وعزلها عن العواطف والخصوصيات الثقافية والشخصية.

يجب - ما دام ذلك ممكنًا - أن تُرى الحقيقة رؤية واحدة من أي زاوية تمَّ النظر إليها، ومهما كانت هوية الناظر، وتجد ذلك في عدد من التوجيهات القرآنية، منها: قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ ﴾ [المائدة: ٨]. وقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴾ [الحجرات: ٦]، وقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ ﴾ [الحجرات: ١٢]. وقوله: ﴿ وَلَا تُجَـٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٧] وقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء: ١٣٥]. إنَّ الوقوف على الحقيقة والاعتراف بها مهما كانت مُرَّة ومجافية للمصلحة هو - وقبل كل شيء قيام لله تعالى بالقسط والعدل، وهو شكل

من أشكال التعبد لله تعالى إذا خلصت النية. ثمّ إنَّ الإيمان الراسخ بأهمية كشف الحقائق وأهمية استثمارها وتوظيفها يُعدُّ بحق أهم عامل بين عوامل التقدم العلمي الذي تنعم به البشرية اليوم.

لا بدَّ لتزوير الحقائق والاعتداء عليها وتجاهلها من خلال الهوى أو من خلال العاطفة أو من خلال المصلحة أن يؤدي إلى التأزم الفكري، وأن يكون في الوقت نفسه ثمرة رديئة من ثمار التخلف الشامل الذي يعاني منه أكثر الشعوب الإسلامية.

• لماذا دكتور؟

- الأمر واضح، فحين تكون الحقيقة الماثلة للعيان هي الفقر والظلم والجهل والاستبداد والانحطاط الاجتماعي، ثم ينطلق الإعلام ليتناسى كلَّ ذلك، ويملأ أسماع الناس بذكر الأمجاد والبطولات والإنجازات الهائلة، وتقديس الأشخاص وذكر الحسنات والمناقب... فإنَّ هذا يعني أنّنا لم نضع أرجلنا بعد على طريق علاج هذه المشكلات، وأننا قد تركناها لمزيد من التضخيم والتعقد.

أحيانًا نعترف بالمشكلة لكن نجد أنفسنا - لأسباب غير موضوعية - عاجزين عن تحديد المتسبب فيها والمسؤول عنها، وهذا يؤدي إلى طمس الحقيقة واستحالة معالجتها.

وحين يكون لدى عدونا وخصمنا التاريخي جزء من الحل لمشكلاتنا ولكن يمنعنا الكبر، أو ما ندّعيه من ضرورة التميز من أن نقتبس منه ونستعير، فإنَّ هذا يعني أيضًا أنّنا لم نكن أوفياء للحقيقة، وأننا أعرضنا عنها مع أنَّ منهجيتنا تدعو إلى الاستفادة منها. ونتيجة كل ذلك هي حرمان الأمة من بعض الحلول الجيدة لما تعاني منه.

وإذا تأمّلت فيما ذكرت وجدته واقعًا في حياتنا بصورة من الصور، ووجدت أنّنا لسبب من الأسباب لم نستطع إعمال عقولنا على نحو جيد، في الوقت الذي أرخينا فيه العنان لرغباتنا وعواطفنا وميولنا.

• تمام، والآن لو حدّثتنا بشيء من الإيجاز عن مظاهر التفكير العاطفي أو مظاهر المضي مع الرغبات بعيدًا عن الحقيقة والحكم العقلي الراشد.

- العواطف والميول والانفعالات عمياء. وهي كثيرًا ما تكون عبارة عن ردود أفعال على مثيرات معينة، وإذا تركت وشأنها فإنَّ كثيرًا من الخلل والزيغ والظلم سوف ينشأ ويحدث وينتشر بسببها.

مهمة العقل التفكير، ومهمة التفكير العقلاني أن يرشِّدَ العواطف ويخفف عن غلوائها وتحيزها، ويجعلها في حدود المقبول والمنطقي. وفي إمكاننا أن نتفهم هذا الدور الإرشادي

للعقل وللثقافة من خلال مشاهدة تصرفات الأطفال. فهم يقدمون لنا نموذجًا من العواطف التي لا تجد عقلًا يضبطها، ويوجهها؛ حيث يفتقد الطفل كثيرًا من معايير الصواب والخطأ والخير والشر واللائق وغير اللائق. على حين تكون عواطفه شبه كاملة. وأتصوَّر أنَّ من أهم ما يترتب على تفلُّت العواطف من قبضة العقل الآتي:

أولًا: المبالغة والتهويل في المدح والذم والموالاة والمعاداة والقبول والرفض؛ حيث إنَّ التفكير العاطفي أو التفكير في إطار العاطفة وفي ظل هيمنتها يتم في ظل الاختلال العام للمنطق الشخصي للمرء. وفي ظل فقدان التوازن والاعتدال. إننا إذا أحببنا شيئًا وفُتنًّا به أخذنا في البحث عن غطاء لمشروعية ذلك الافتتان. ويكمن الغطاء آنذاك في كيل المدائح وإبراز المحاسن ورفع ذلك الشيء إلى مستوى الأساطير، وإذا أبغضنا شيئًا حاولنا أيضًا تسويغ ذلك البغض عن طريق إبراز مساوئه وعيوبه.

• ألا ترون – دكتور – أنَّ هذه الظاهرة تنتشر في المجتمعات التي ترتفع فيها نسبة الأمية. ويسود فيها الجهل؟

– لا شكَّ في هذا، وظاهرة شعر المديح الذي يتم فيه الخروج فعلًا على الحكم العقلي المتزن، أقول: هذه الظاهرة محدودة جدًّا في المجتمعات المتقدمة.

• إذا كان هذا صحيحًا، فلماذا يحدث؟ أو ما علاقة الأمية وضعف انتشار المعرفة بسيطرة العواطف وتراجع التفكير العقلاني؟

– في تصوري أنَّ الكتابة تنمي التجريد، وتجعل التواصل الثقافي يتم بين الناس بصورة غير مباشرة، أي عبر الأشياء المكتوبة والمقروءة، وبذلك تبتعد المفردات اللغوية عن ساحات النزال والاحتكاك اليومي المباشر. في الاحتكاك المباشر يكون صوت العواطف أقوى لأنَّ استجابتها آنية وسريعة.

أما الأحكام العقلية التي نولِّدها، ونودعها في الكتب، فإنها تتكون ببطء؛ ولهذا فإنها تتراجع في حالات الاتصال الشفوي بين الناس، هذا كلُّه يعني أنَّ من شأن انتشار الكتابة والتثقيف عن طريق المقروء وليس المسموع، أن يتوفَّر دورٌ أكبر للحكم العقلي وللمنطق والمعايير العلمية، وسيحدث العكس في حالة انتشار الأمية.

• هل يمكن أن نسوق مثالاً على موضوع المبالغة في فهم أو رؤية الأشياء؟

– الأمثلة كثيرة حتى في صنوف المثقفين، خذ مثالًا: قضية (العولمة) بوصفها مسألة حديثة؛ حيث نجد أنَّ من الكتاب والمثقفين من يرى في العولمة حركة عظيمة يتم من خلالها نشر ثقافة التنوير في العالم، ونشر محصلات الفكر

الغربي الإبداعية، إلى جانب نشر الإنجازات التقنية للغرب، ونشر أسلوب عيشه وإدارته للإمكانات والأزمات، وبذلك فإنَّ العولمة تشكّل فرصة ذهبية للشعوب النامية والمتخلفة كي تتخلّص من كثير من تقاليدها البالية ومن ثقافتها العتيقة التي أقعدتها عن النهوض. وهناك مِنْ كتابنا مَنْ يحاول تصوير العولمة على أنها نموذج لما يمكن أن يجتمع فيه شرور العالم؛ فهي حركة استعمارية جديدة تستهدف العقول والأرواح والجيوب وهي أكبر مؤامرة تحتشد فيها التقنية الفائقة مع التخطيط الذكي مع الفائض العظيم لرأس المال.

والحقيقة أنَّ العولمة ليست فرصة لإنقاذ الشعوب الضعيفة والفقيرة من نفسها كما تصوَّر الفريق الثاني؛ بقدر ما هي تجمع بين الأزمة والفرصة، وبين ما وجد نتيجة نمو طبيعي، وما يوجَّه ويستغل لصالح أثرياء العالم وأباطرة المال على حساب الفقراء. إنَّ العولمة مزيج من الطبيعي والمصنوع والنافع والضار، وإن كان ضررها أكبر من نفعها.

ثانيًا: أما ثاني ما يترتَّب على سيطرة العواطف وإفلاتها من دائرة هيمنة العقل فهو التعصب. وهو أحد منتجات التفكير على أرضية عاطفية بعيدًا عن المعايير الشرعية والعقلية. العاطفة تدفع باستمرار نحو الحد الأقصى في كلِّ شيء. ولو نظرت في شعر الغزل؟ مثلًا - لرأيت مصداق ذلك؛ حيث يصنع الشاعر لمن يتغزَّل بها صورة فائقة مذهلة،

ليست موجودة إلا في خياله.

التعصب أشكال وألوان، فهناك المتعصب للمذهب الفقهي، والحزب السياسي، والجماعة الدعوية والإصلاحية. وهناك التعصب للتاريخ والحضارة، والتعصب للتخصص والمهنة...

ويقتضي التعصب بطبيعته أمرين: الدوران حول محاسن وميزات وفضائل وخصائص من يجري التعصب له. والحط من قدر ما يخالفه أو يناقشه أو يناوئه، أو يقدم صورة مختلفة عنه.

إنه ظلم في اتجاهين أو ميل عن العدل والقصد من منحيين. وقد خفَّ التعصب المذهبي اليوم بعد أن ساد لفترات طويلة، وحلَّ محله الآن التعصب للأقطار والبلدان؛ حيث تسعى العولمة بكلِّ ثقلها إلى تفتيت المنظومات الكبرى إلى أصغر أجزاء ممكنة حتى تسهل السيطرة عليها. وحين تستمع إلى كثير من المحطات الإذاعية والفضائية، فإنك تلمح على نحو واضح وصريح التعصب للأوطان والأقطار ومحاولات بائسة للحديث عن فضائل غير موجودة أو تضخيم لفضائل صغيرة.

وحلَّ محل التعصب المذهبي كذلك التعصب للحزب السياسي والجماعة الدعوية، مع أنَّ كل توجهات الأحزاب والجماعات والمجموعات قائمة على اجتهادات قد تصيب وقد تخطئ، لكن العاطفة تعمي العيون عن السلبيات والأخطاء، ولا تبرز إلا المحاسن، على حد قول الشاعر العربي:

وَعَينُ الرِّضَا عَن كُلِّ عَيبٍ كَلِيلَةٌ

كَمَا أَنَّ عَينَ السُّخطِ تُبدِي المَسَاوِيَا

الكل مسرور ومقتنع بما لديه. وشيء من هذا مطلوب لكن النظر المتعمق يقول: إنَّ إبعاد النظرة النقدية والروح النقدية عما نتبناه من مذاهب وأفكار واتجاهات يؤدي إلى تراكم الأخطاء، كما يزيد من درجة الانحراف، ولعلنا نتأمل مليًا في قول الله تعالى: ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٣].

إنَّ الشرع والعقل يقضيان بأن نتَّخذ من اختلافاتنا ومن التفاوت القائم بيننا ميدانًا فسيحًا للمقارنة والموازنة والفهم العميق؛ حيث يمكن للمنصف العاقل الذي تمكّن من السيطرة على عاطفته أن يقتبس من محاسن من يخالفونه وأن يكشف وجوه التقصير لديه من خلال رؤية جوانب القوة لدى الآخرين، لكنَّ العاطفة كثيرًا ما تعمل في اتجاه مضاد للبصيرة والحكمة.

• دكتور عندنا مصطلح (الالتزام)، وعندنا مصطلح (التعصب)، والالتزام ممدوح، أما التعصب فإنه مذموم، والملتزم والمتعصب يشتركان معًا في أنَّ لديهما درجة عالية من الحمية والحماسة نحو شيء معين. فكيف يمكن لنا وضع خط فاصل بين هذا وذاك؟

- شكرًا لهذا السؤال لأنَّه يفتح أعيننا على شيء ملتبس

ومتداخل فعلًا. في رأيي (الالتزام) هو عبارة عن تمسك بقطعيات لا تقبل الجدل، والإيمان الصادق والعميق بمبادئ انعقد عليها الإجماع؛ مثل أمهات الفضائل، كالكرم والشجاعة والوفاء والإحسان واجتماع الكلمة والصدق والتعاون ونحو ما هو معلوم من الدين بالضرورة كأركان الإسلام والمحرمات والكبائر المعروفة حرمتها معرفة ضرورية.

فالشخص الملتزم يتمسك بما لا يرقى إليه الاجتهاد والاختلاف.

أما التعصب فإنَّه عبارة عن الاقتناع العميق بأمور تقبل الخلاف والمراجعة والاجتهاد وتباين الآراء والمواقف.

الكرم فضيلة، والسعي إلى أن يصبح المرء كريمًا شيء مطلوب شرعًا وخلقًا وذوقًا، لكن قد نختلف هل هذه الصورة من البذل هي من الكرم الحقيقي أو من الرياء أو من الإسراف والتبذير؟

العمل الجماعي فضيلة، لكن يجوز أن نختلف: هل ينبغي العمل مع الجماعة الفلانية، أو الأفضل تشكيل جماعة جديدة، وهل العمل مع الجماعة الفلانية للشخص الفلاني - بما هو حالة خاصة - أفضل أو اعتزالها أفضل...؟

كل هذا يقبل الجدل ويقبل الخلاف وحين ترفض جماعة أو جهة أو شخص مناقشة هذه الأمور بحجَّة أنَّ العمل

الجماعي مطلوب وضروري. فإنَّ ذلك يكون من قبل التعصب المذموم. ويشكل هذا في بعض الأحيان نوعًا من الإرهاب الفكري.

• كيف يمكن فضُّ الاشتباك على المستوى النظري والعملي بين الالتزام الممدوح والتعصب المذموم؟

– فضُّ الاشتباك بين هذين المفهومين أو الأمرين على نحو تام غير ممكن؛ لأنَّ كلًّا منهما يتمتَّع بوسط متدرج، وهما أحيانًا يتداخلان كما تتداخل الألوان في لوحة زيتية. أضف إلى هذا أنَّ لدينا عقولًا كثيرة تبدي دائمًا عجزًا ظاهرًا عن التفريق بين المتشابهات والملتبسات، لكن أتصور أنَّ تأسيس ثقافة التفريق بين القطعيات والظنيات، وبين ما هو من قبيل الحقائق الثابتة وما هو من قبيل الآراء الشخصية، فضلًا عن تكثيف الحوار في حياتنا العامة بحرية وأمانة وثقة... إنَّ كلَّ ذلك يساعد على التخفيف من غلواء التعصب المذموم.

• هل هذه عين الوصفة المقترحة لتحسين المحاكمة العقلية، وإبعاد آرائنا عن دوائر تأثير العاطفة، أو أن هناك شيئًا آخر؟

– لا شك أنها جزء من العلاج، لكنَّ العلاج الكامل قد لا يمكن توفيره على نحو خاص، وإنما يكون ثمرة عامة من ثمرات التحضير العام والتقدم الفكري الشامل، ومع هذا فإنَّ من الممكن القول: إنَّ تثقيف الناس بمواضع التماس بين

العقل والعاطفة، وبين الأنا والآخر، والذات والموضوع بالإضافة إلى توضيح طبيعة اللغة واحتمال النظام اللغوي لكثير من التزيد وتجاوز الحقيقة... أقول: إنَّ كلَّ ذلك يسهم في تحرير الحكم العقلي من سيطرة العواطف.

• • •

السؤال الحادي عشر

يقول أحد الباحثين: إنّ جوهر أزمتنا الفكرية يكمن في تشوه المفاهيم السائدة في مجتمعاتنا فما مدى صحة هذا القول؟ وما مدى انتشار هذه الظاهرة في شرائح وطبقات الأمة المختلفة؟

- أعتقد أنّ هذا القول صحيح إلى حدٍّ بعيد؛ لأنّ أهمّ ما تنتجه حركة التوعية وحركة التثقيف في مجتمع من المجتمعات، يتمثّل في مجموعة المسلّمات والمبادئ والمفاهيم والأفكار الأساسية التي يتداولها الناس، وينطلقون منها في أعمالهم وعلاقاتهم، وينظمون على أساسها مواقفهم وردود أفعالهم.

المفاهيم - في نظري - تشكّل النظارة التي يشاهد الناس من خلفها الأشياء، وحين تكون النظارة غير ملائمة للعين، ولا تساعدها على رؤية الواقع كما يراه الأصحّاء، فإنّ المتوقّع آنذاك أن يحكم الناس على ما يرونه، وأن يتعاملوا معه بطريقة صحيحة، وبطريقة غير صحيحة وغير راشدة. إنهم يرون واقعًا معوجًا، وهو مستقيم أو العكس. ويرون الأشياء قريبة وهي بعيدة، وصغيرة وهي كبيرة.... إلخ.

• ما وجه الشبه بين المفاهيم وبين النظارة؟ وهل تريد أن تشبه العقل بالعين؛ حيث تكون المفاهيم بالنسبة إليه بمثابة النظارة؟

- أنا لا أشبه العقل بالعين، ولكن أشبهه بالعين العليلة.

• كيف؟

- إن اللّٰه جل وعلا زوّدَ عقولنا بمبادئ أساسية نستطيع من خلالها أن نعيش حياة بسيطة وعادية. وتلك المبادئ إذا دُعمت بالخبرة والمعرفة الممتازة، فإنَّ الإنسان يستطيع أن يبدع ويخترع ويصل إلى أشياء مذهلة. لكن مع تعقد الحياة وكثرة تشعبات الأمور واتِّساع مساحات الاحتمالات والخيارات والبدائل، صار التقصير في التعلم وصارت ضحالة الخبرة... من الأشياء الخطرة على عمل العقل؛ حيث إنَّ العقل يتعرّض لمعلومات خاطئة كثيرة، كما يتعرّض لمفاهيم قاصرة ومشوهة، وهو بطبيعته مهيأ لقبول ذلك، ولا يملك مناعة ذاتية ضدَّ ذلك.

إنَّ العين السليمة ترى الأشياء كما هي، لكنَّ العقل لا يكون سليمًا بفطرته وتركيبته في التعامل مع الأمور المعقدة؛ بل لا بد من تثقيفه وتدريبه وملاحظته حتى يعمل على نحو جيد، وهذا من جملة الابتلاء لنا في هذه الحياة، ربما أنَّ معظم الناس لا يتاح لهم ما يحتاجون من تعليم وتدريب.. على وجه المطلوب، فإنَّ لك أن تقول: إنَّ كثيرين منا في حاجة إلى

نظّارات عقلية جديدة، ويحتاجون قبل ذلك إمّا إلى التخلّص من النظارات القديمة، وإمّا إلى القناعة بأنهم لن يروا الأشياء على ما هي عليه من غير وضع نظارات جديدة.

• **هذه لفتة مهمة جدًا، وأرجو الآن – دكتور – أن نعود إلى تخلف المفاهيم في عالمنا الإسلامي المعاصر.**

– نعم. أحبُّ قبل كلِّ شيء أن أقول: كما يمكن تشبيه المفاهيم بالنظارة يمكن تشبيهها بالأداة. وهذا التشبيه مهم في الكشف عن طبيعة العقل وطبيعة عمله. إنَّ عقولنا لا تتعامل مع القضايا المختلفة على نحو مباشر، وإنما عبر الأدوات، كما أنَّ النجار والحدّاد والفلاح... لا يتعاملون مع الحديد والخشب والتراب إلا عبر أدوات ملائمة.. لكنَّ العقل وهو يستخدم أدواته (المفاهيم) يتفاعل معها، فهو من خلالها يطوّر ذاته، ويغير في طروحاته وحلوله ورؤيته، وهكذا فإنَّ المفاهيم القاصرة والمشوهة تؤدي إلى نوع من الانتكاس في التفكير.

• **قبل أن تفيض في الحديث عن المفاهيم، أودُّ أن أعرف الفرق بين المفهوم المشوَّه والمفهوم القاصر.**

– المفهوم القاصر هو مفهوم صحيح لكنّه يأخذ طابع الجزئية أو طابع السطحية؛ بمعنى آخر هو مفهوم جيد على مستوى المستويات، أو في اعتبارٍ من الاعتبارات، أو حالة من الحالات. لو كان هناك شخصان يتقاتلان، مع أحدهما

سكين ومع الآخر مسدس أو بندقية، فإننا نحكم على أن السكين سلاح لكنَّه سلاح قاصر لمن يواجه شخصًا معه بندقية، وهكذا فإن الذي يقول: إن طهارة القلب وصفاء السريرة هما لبُّ الدين وجوهره، وهما عنوان الالتزام وخلاصته - وهذا الكلام يقوله كثير من المسلمين ويعملون به - هذا الكلام صحيح إلى حدود، ولكن هناك أركان الإسلام، وهناك الكثير من الواجبات، وهناك اجتناب المحرمات، وهذه الأمور مع صفاء القلب تشكِّل الالتزام.

في المسلمين من يقول: أهمُّ شيء في التدين هو حسن التعامل مع الناس، وبعضهم يلخِّص كل التدين في ذلك. والتعامل مع الناس حسب الآداب والأحكام الشرعية شيء جوهري، لكن هناك ما هو أهم منه، وهو التعامل مع الله تعالى، والذي ينبغي أن يكون التعامل مع الناس في أُفقِه وفي دائرة مفاهيمه.

أما المفهوم المشوَّه فهو مفهوم خاطئ لا يصح إقراره، ويعدُّ من الناحية العملية مخالفًا لجملة المفاهيم المطلوبة لارتقاء الأمة وتقدمها، وذلك مثل المفهوم الذي يقول: إن الرزق مقسوم؛ ولذلك فليست هناك فائدة من وراء السعي والعمل والاجتهاد.

فهذا المعتقد صحيح ولكن اجتهاد بعض الناس بأنَّ

المقسوم لا يحتاج إلى جهد هو الخطأ. وقد أفضى بهم ذلك إلى الكسل والتواكل ليجعلوا مَن يعمل ويكدح مثل القاعد البطّال! وهذا مخالف لجوهر مفهوم المسؤولية والجزاء والعدل في الإسلام.

والحقيقة أنَّ هذا المفهوم المشوَّه قد شلَّ قدرات كثير من المسلمين وحوَّلهم من أشخاص يمكن أن يكونوا عمالقة إلى أقزام ومهمَّشين.

وكمثال آخر فإنَّ كثيرًا من الناس يعتقدون أنَّ الذكاء مطابق للنجاح، فكلُّ ناجح ذكي وهذا المفهوم مشوَّه أيضًا؛ فالذكاء عنصر من عناصر النجاح لكنَّه بمفرده لا يحقق النجاح، ولك أن تقول: إنَّ متوسط الذكاء إذا مَلَكَ المعرفة والاستقامة والمثابرة، يحقق من النجاح أكثر بكثير مما يحققه شخص ذكي لكنه مهمل أو جاهل.

● لماذا يحدث التشوه في المفاهيم؟

- أعتقد أنَّ قصور المفاهيم وتشوُّهها كذلك هو الأصل؛ فسوء الفهم لدى الناس لكثير من الأمور والأشياء شيء منتشر على نطاق واسع جدًّا، ثم إنَّ الناس حين لا يظفرون بتثقيف جيد ولا يتاح لهم تكوين صورة ذهنية جديدة حول بعض المسائل والموضوعات المختلفة، فإنَّ الخيال لديهم وكراهية الفراغ يدفعان دفعًا نحو إحلال العادات والتقاليد والموروثات

الشعبية - على ما فيها من خلط وأوهام - في محلٍّ ما ينبغي أن يتلقوه من علم وفهم وتحليل جيد وصحيح؛ ولهذا فإنَّ الناس على مدار التاريخ كانوا يجعلون - دون أن يشعروا أنهم أخطأوا - الدين جزءًا من تقاليدهم وعاداتهم، عوضًا عن أن يكون مهيمنًا عليها، وموجهًا لها.

والحقيقة أننا - على نحو دائم - نواجه عجزًا مخيفًا في أعداد أولئك الذين سيقومون بتعليم الناس ودعوتهم وترتيبهم. على أن بعض من يقوم بشيء من ذلك يسهم فعلًا - لسبب أو لآخر - في زيادة المشكلة؛ لأنه غير واعٍ لخطورة العمل الذي يقوم به، وغير مدرك لجوهر الرسالة التي يبلغها.

ويمكن أن تضيف إلى هذا وذاك أنَّ العقل وهو يستوعب الأفكار والمفاهيم والطروحات المختلفة يولِّد منها أفكارًا فرعية إضافية، ويحاول إيجاد تطبيقات عملية وأمثلة توضيحية لها، وهو في ذلك كثيرًا ما يقع في الخطأ، ويُلحق بالمفهوم ما ليس فيه، تمامًا كما يحدث حين نقوم بسقاية شجرة، فإنَّ الماء ينفع الشجرة ويساعدها على النمو، لكنَّه في الوقت نفسه ينبت الأعشاب الضارَّة حولها. وأعتقد أنَّ كلَّ هذه المشكلات التي ذكرتها ليس لها أي حلول حاسمة لا عند المسلمين ولا عند غيرهم، لكن هناك إمكانات كبيرة لإيجاد تحسُّن نسبي وحصول وعي أفضل بكل عقائدنا ومبادئنا وأهدافنا وقضايانا.

• هل يمكن أن تذكر لنا - دكتور - بعض الأمثلة التي توضح ما تعتقد أنه يشكل معالم تخلف المفاهيم لدينا؟

- فعلًا أنا لا أستطيع أن أُكثر من تقديم بعض الأمثلة؛ لأنَّ الحقيقة - أي حقيقة - طبقات بعضها فوق بعض، ولكل أصل من الأصول تفريعات وتفصيلات عديدة. وكلَّما مضيت معها وتعمقت فيها كثر أولئك الذين لا يعرفون عنها شيئًا، أو يفهمونها على نحو خاطئ. ولكن بما أننا نسعى إلى النهوض، ونبحث عن مخرج من الأزمات التي نعيش فيها، فإنَّ علينا أن نُنظِّرَ بشيء من المثالية التي تتجاوز الواقع وترتفع عليه لكنَّها تظل قريبة منه. وأنا هنا سأذكر ثلاث أمثلة لتخلف المفاهيم لدينا، فضلًا عمَّا كنت أشرت إليه من قبل:

أولًا: التربية قضية من القضايا المهمة في كلِّ زمانٍ، وهي في زماننا أعظم أهميةً، بسبب ارتقاء ما ينبغي إعداد الناشئة له وتزويدهم به.

فالإنسان من غير تربية جدية يمكن أن يعيش ويحيا في نطاق الضرورات كما هو شأن الحيوان. ونحن نجد اليوم أنَّ كثيرًا من المسلمين - إن لم نقل أكثر المسلمين - يعتقدون أنَّهم يمكن لهم أن يربوا أطفالهم بالقدر المتوفر لديهم من الخبرة، أو بنفس الأسلوب الذي ربَّاهم به آباؤهم، ولا يخطر في بال كثير منهم أنَّ هناك شيئًا اسمه (الثقافة التربوية)، وأن هناك بيئة تربوية يجب توفيرها، كما أنه ليس هناك تفكير

في أنَّ المتطلبات التربوية لأبنائنا وأحفادنا مختلفة عن متطلبات تربية الأجيال الماضية؛ ولهذا فإنَّ الواحد منا على استعداد لإنجاب عشرة من الولد دون أن يخطر في باله أن يشتري كتابًا، أو يستمع إلى محاضرة، أو يستشير خبيرًا!!

في البلدان المتقدِّمة دراسات وتجارب من أجل تقديم شيء لـ (الجنين) يساعده في مستقبل أيامه على أن يكون ذهنه أكثر تفتحًا، وأن يكون إنسانًا حساسًا وناجحًا؛ ومن ثمَّ فإنَّك ترى الأمَّ هناك تقوم بتربية أطفالها بعد أن قرأت العديد من الكتب التي تُعلمها كيف تهتم بهم، وكيف تنشئهم وفق أحدث المعطيات التربوية. وكثيرًا ما ترى أمًّا وهي تقرأ قصة أو حكاية أمام طفلها، وتحاول شرحها ونقل معانيها إليه.

وباختصار؛ يمكن القول: كلَّما ارتقت الأمم زاد اهتمامها بالتفاصيل والمؤشرات الصغيرة، وكلما خيَّم عليها التخلف اختصرت القضايا الكبرى بعبارات صغيرة، ثم انصرفت عن التنظير والعمل معًا!!

المفهوم الثاني مفهوم الحرية: وهو من المفاهيم الكبرى في الحياة، وكثير من الناس يدركون المعنى الضروري له، وهو الانعتاق من أسر الأغلال الظاهرة والآتية؛ فالسجين يرى الحرية في الخروج من السجن، والموظف ينتظر اللحظة التي

ينصرف فيها من وظيفته، والمنتظر لأمر مرغوب له يرى حريته في الحصول عليه، والمريض يرى حريته في مغادرة الفراش، وهكذا وهكذا.. وهناك أقوام منا يتطلعون إلى الحرية؛ لأنها في أذهانهم مرادفة للفوضى؛ إنَّهم يحلمون بحياة ليس فيها قيود ولا محرمات ولا واجبات؛ ولهذا فإنَّه ما إن تضعف الدولة أو السلطة التي يرضخون لها، وما إن يفلتوا من الرقابة الاجتماعية حتى يهيموا على وجوههم في مراتع الملذات والمخالفات والموبقات...!!

إنهم لا يعرفون شيئًا عن الحرية المسؤولة. التي تعني فيما تعنيه أن يتصرَّف الإنسان وفق مبادئه ودون أن يُلحق الأذى بأي أحد وأن يقيد حركه برقيب من نفسه.

• ما تقول فعلًا حادث على نطاق واسع، فكيف يمكن الارتقاء بهذا المفهوم؟

- دائمًا أنت تلحُّ على معرفة الحلول مع أنَّ حوارنا في الأساس حول الأزمة الفكرية، وليس حول التقدم العقلي والفكري؟

• أنا أخشى إذا قصرنا الحديث على الداء دون الحديث عن الدواء أن نزرع اليأس في نفوس القراء، فنزيد في الأزمة عوضًا عن التخفيف منها.

- قد يكون معك الحق في هذا مع توضيح يسير. هو أنَّ

من المهم أن تدرك أنَّ حديثنا هنا عن معالجة أزمتنا الفكرية هو حديث مقتضب وسريع غير متعمق، ولا يقدم أكثر من مفاتيح أو رؤوس موضوعات والمعالجة الحقيقية تحتاج إلى كلام واسع وأشمل وأدق مما قلناه هنا. بالنسبة إلى الارتقاء بمفهوم الحرية فإني أعتقد أنه يحتاج إلى أعمال وجهود فكرية وتثقيفية حثيثة من أجل بلورة المفهوم من الأفق الشرعي والإنساني على نحو جيد، كما يحتاج إلى جهود في شرحه للناس وتنشئتهم عليه بالإضافة إلى إحداث تغييرات كبيرة في الظروف السياسية و المعيشية.

• **هل يمكن ذكر بعض النقاط والأمثلة من أجل التوضيح؟**

- أظن أنه يمكن لنا أن نتحدَّث في الأمور الثلاثة الآتية:

أولًا: إنَّ جوهر الحرية يتمثَّل في القدرة على الاختيار. الإنسان الحرُّ يجد نفسه مخيرًا بين فعل أمرين أو أمور؛ ولهذا فإنَّه يمارس حريته في الاختيار. أما مسلوب الحرية، فيجد نفسه دائمًا أمام خيار واحد، كما هو شأن الطليق والسجين وانطلاقًا من هذا فينبغي لنا أن ننظر إلى سيطرة الأهواء والشهوات علينا وإلى الفقر والجهل والمرض والاستبداد والكراهية والأنانية وضيق الأفق على أنها قيود ثقيلة تجعل المرء فاقدًا لحريته أو محدود الحرية مهما ردَّدَ من شعارات وأطلق من ادّعاءات.

التخلف يجعل المرء دائمًا أمام حالة واحدة أو خيار واحد؛ لأنَّ التخلف يشبه العدم ويشبه الموت، أما الازدهار والتقدم والرخاء فإنها تشبه الحياة التي تضمُّ أشكالًا كثيرة من النوع والتعدد والتباين، وهذا ما يتيح المزيد من الحرية.

ثانيًا: بناءً على ما سبق فإنَّ مفهوم الحرية لا ينمو في أي مجتمع من المجتمعات من خلال الأقوال والشعارات والأمنيات، وإذن لأصبح كلُّ الناس أحرارًا، لكنَّه ينمو من خلال المبادرات والإنجازات والمواقف.

إنَّ الذين يتحدثون عن الحرية بوصفها حلمًا ذهبيًا كثيرون جدًّا، لكنَّ هذا المفهوم لم يترسَّخ حقيقة، ويصبح أساسًا لتشريعات محترمة وواقع معيش إلا من خلال وجود أعداد كبيرة من الناس تتمتع بالأنفة ورفض الظلم والتأبي على أن يحيوا حياة أشبه بحياة السوائم الذليلة، مع أنَّهم يعتقدون أنَّ ذلك قد يجرُّ عليهم المتاعب والتهميش والأذى، لكنَّ إيمانهم بأنَّ الناس لا يحيون أعزة كرامًا - كما أراد لهم البارئ جل وعلا - إلَّا من خلال العطاء والتضحية غير المشروطة. وليس من خلال الطمع والاستحواذ، لكنَّ ذلك الإيمان يدفعهم إلى أن يشتروا أنفسهم بثمن عالٍ وغالٍ، يدفعونه عن طيب خاطر.

ثالثًا: نحن كثيرًا ما ننظر باستخفاف إلى تأثيرات البيئة في

أخلاق الناس وسلوكهم، وذلك استنادًا على ما لدى الناس من وعي وتدين وقدرة على الصمود والمقاومة، وهذا من جملة أوهامنا.

إنَّ السواد الأعظم من الناس يتكيَّفون سلبيًا مع بيئتهم، ويخضعون لأحكامها. ومن هنا فإنَّ الحرية الأكيدة هي الحرية التي تولِّدها ظروف موضوعية. ذلُّ الحاجة وذلُّ الخوف من المستقبل... كل هذه الأشكال من الذل تكوِّن لدى الناس نفسية الإنسان المقهور الذي يشعر أنَّه ما خلق إلا ليكون هكذا.. في أتون المشكلات التي لا تنتهي.

وأن تغير هذه المعطيات من خلال العمل الدؤوب يجعل الناس يشعرون بآدميتهم، ويجعلهم يتصرَّفون كما يتصرَّف الرجال الأحرار النبلاء.

• كأنك – دكتور – تربط الحرية الحقيقية بالتقدم السياسي والاقتصادي؟

– أنا أربطها حقيقة بالتقدم الشامل، ومنه التقدم السياسي والاقتصادي، وللتقدم الأخلاقي والسلوكي والإيماني نصيب كبير في تحريرنا من أَسْر الشهوات والمطامع والهواجس الدنيوية. وللتقدم الاجتماعي نصيب في تحريرنا من العادات والتقاليد السيئة التي ما أنزل الله بها من سلطان. وللتقدم العلمي والمعرفي نصيب في تحريرنا من أوهام الجهل والخرافة،

لكن ربما كان للتقدم السياسي والاقتصادي على الصعيد العام دور مؤثر أكثر من غيره، أما على الصعيد الشخصي فتقوية الرابط بالله تعالى والالتزام بأمره يحقق حرية لا نظير لها.

• **هذا صحيح، وبقي علينا مثال ثالث على أزمة المفاهيم وعدت به.**

- نعم المثال الثالث: العمل الجماعي.

من الواضح أنَّ تعاليم الإسلام تحث المسلم على التلاؤم مع إخوانه وإيجاد صيغ عملية مشتركة يتم من خلالها التعاون على البر والتقوى، كما يتم من خلالها إنجاز الكثير من الأعمال المهمة. أضف إلى هذا أنَّ الإسلام يحثُّنا على تكوين آراء متطابقة أو متقاربة في القضايا الكبرى والحاسمة على ما هو معروف في العديد من النصوص، لكن حين نأتي للواقع المعيش نجد أنَّ اجتماع الناس بطبيعته يثير بينهم الكثير من التوتر والكثير من النزاع وتصادم الآراء والرغبات والتطلعات والمصالح. وحيث يحتكُّ الناس بعضهم ببعض يكون ذلك الاحتكاك اختبارًا للتربية المنزلية والمدرسية التي تلقَّوها. إنَّ علينا أن ننظر إلى العمل الجماعي لدينا - كما هو الشأن في كثير من الأمور - من أفق المنهج الرباني الذي نؤمن به، وأفق ما لدى الآخرين من تجارب وخبرات وتراكمات في نجاح العمل الجماعي. ومن هذين الأفقين ألاحظ على روح الفريق

لدينا وعلى الأطر الجماعية الملاحظات الآتية:

كثيرًا ما تقع في إطار المؤسسة أو الجماعة أو الجمعية الواحدة تحالفات غير موضوعية، وهذا ما اصطلحنا على تسميته بـ (الشللية)؛ حيث تجد مجموعة من الناس اجتمعوا حول مفاهيم جزئية ومصالح ضيقة، مع الأيام يصبح انتماؤهم إلى هذه المجموعة هو الانتماء الأساسي. وعوضًا عن أن ينشغلوا بتحقيق أهداف المؤسسة التي ينتمون إليها يشغلون أنفسهم بالتآمر على فلان وعلان وذكر مساوئ القائد الفلاني والمسؤول الفلاني. إنهم باختصار يُضعِفون الإطار العام الذي يجمعهم من حيث لا يشعرون.

• لماذا دكتور يحدث هذا؟ وهل هذا شيء طبيعي؟

- يحدث هذا لأسباب عديدة؛ منها أننا في تربيتنا نركِّز على النجاح الفردي، وليس على النجاح الجماعي، وأحيانًا يحدث ذلك بسبب ضعف الإطار العام، فيتَّخذ بعض الناس إطارًا جديدًا داخل ذلك الإطار. يرون أنَّه يمكن أن يكون أقوى منه. ويحدث ذلك أحيانًا بسبب غموض أهداف الجماعة، كما يحدث بسبب ظلم بعض القيادات وسوء إدارتها. كما أنَّه يحدث بسبب الأنانية وسيطرة المصالح الشخصية وضعف الاحتساب.

• **هل هذا طبيعي؟**

- نعم، إنَّ قدرًا يسير منه طبيعي، ليس بمعنى أنَّه جيد ومقبول، ولكن بمعنى أنه لا يمكن الوصول إلى حلول كاملة في وسط غير كامل، أو إلى نتائج كاملة في ظلِّ مقدمات ناقصة؛ ولذلك كلما كانت الجماعة أو الحزب أو المؤسسة مريضة عليلة زادت فيها الشللية إلى أن ينتهي ذلك بها إلى الاشتقاق والانقسام، وهذه الوضعية السيئة تكاد تخترق كلَّ أو معظم الأعمال الجماعية، وفي المؤسسات والشركات التجارية تتفاقم المشكلة إلى حدٍّ ارتكاب جرائم بشعة، وهذا كله من علامات تخلف العمل الجماعي، ومن أسباب ضعفه وانكماشه.

الملاحظة الثانية: في سياق حديثنا عن تخلف العمل الجماعي، تتعلق بالنزوع إلى السيطرة وحبِّ التحكم لدى كثيرين منا.

إنَّ العمل التعاوني في الأصل هو عمل تهذيبي يساعد الناس على التخلص من زوائدهم الشخصية والخاصة حتى يتمكنوا من تشكيل فريق واحد تحكمه روح واحدة ويتأدب بآداب واحدة، ويحقق مصالح مشتركة، لكنَّ واقع الحال يقول غير ذلك؛ لأنَّ مفاهيم الناس عن العمل الجماعي مفاهيم مشوَّهة؛ حيث ينظر كثيرون إليه على أنه فرصة للزعامة والسيطرة وعرض للعضلات. وهذا يولِّد نوعًا من الاستبداد

لدى الأقوياء في المجموعة، ونوعًا من الاستخذاء والشعور بالظلم لدى الآخرين.

• **أليس هذا شأنًا طبيعيًا من شؤون النفس الإنسانية؛ ولهذا فلا ينبغي التركيز عليه؟**

- بالنسبة للإنسان المسلم فإنَّ المطلوب منه أن يفرَّ من الرئاسة والزعامة والسيطرة إلا في أحوال خاصة محدودة. وأن يكون التقيَّ الخفيَّ الذي ينكر ذاته، ويؤثر غيره. ومن هذا المنطلق فإنه ينبغي أن تكون هذه المشكلة لدينا أقل من غيرنا في انتشارها، لكن واقع الحال يشهد أنها في المجتمعات الإسلامية أشد استفحالًا منها في المجتمعات الغربية!

• **هل هذا بسبب ضعف النظام الإداري؟**

- نعم، بسبب ضعف النظام الإداري، وبسبب ضعف تقاليد العمل الجماعي وأخلاقيات الفريق، فضلًا عن نمو التربية الفردية على حساب التنمية الجماعية.

الملاحظة الثالثة: بعض الذين ينتمون إلى جماعة أو حزب يعملون في مجموعة أو جمعية يطلقون العبارات الرنانة حول فضائل العمل الجماعي، ويقودهم ذلك إلى أن ينسبوا إلى جماعتهم أو جمعيتهم الكثير من الفضائل والمميزات المدّعاة، ويتّخذون من ذلك ستارًا لحجب المآخذ والملاحظات الجادَّة على جماعتهم وأنشطتهم. ويتطوَّر معهم الأمر أكثر فأكثر إلى

أن يهوِّنوا من شأن الإنجازات الفردية؛ بل كثيرًا ما يوجهون الغمز واللمز إلى بعض من يُعرف عنهم الانفراد والعمل بصفة شخصية، وهذا في ظني سوء فهم للقضية؛ فكثير ممن ينتمون إلى أحزاب وجماعات وجمعيات لا يقومون بشيء ذي قيمة؛ بل قد يشكلون عبئًا على تلك الجماعات التي ينتمون إليها، وبعضهم غير قادر على أن يتحدَّث خمس دقائق عن الأشياء التي قدَّمها للأمة أو للمصلحة العامة خلال خمس سنوات!

وفي المقابل هناك أشخاص كثيرون جدًّا لا ينتمون إلى أي جماعة أو حزب أو مؤسسة ولكنَّهم ناجحون جدًّا في أعمالهم؟ ويقدمون للأمة خدمات جليلة.

فالعمل مع فريق في حدِّ ذاته لا يشكِّل فضيلة، لكنَّ نوعية ما ينتج عنه هو الفضيلة.

• سؤالي: هل الأصل هو العمل الفردي أو العمل الجماعي؟

- الجواب واضح، لو تأملْت في الحركة اليومية للناس لوجدت أنهم ينجزون أعمالهم على نحو فردي، والحضارات قامت على المبادرات الفردية بشكل أساسي، وإن كان لا يصح إنكار فضل العمل الجماعي.

• السؤال بصيغة أخرى، هل انتشار الأعمال الجماعية يُعدُّ مؤشرًا على التقدم الحضاري أو انتشار الأعمال الفردية؟

– من الصعب جدًّا أن تصبح الأنشطة الجماعية أكثر من الأنشطة الفردية، لكن مع زيادة وعي الناس بمشكلاتهم وبطرق حلها، يدركون على نحو متدرِّج أنَّ مشكلات الحضارة لا يمكن حل الكثير منها إلا عن طريق تشكيل عدد هائل من الأطر والمؤسسات الطوعية والخيرية والمزيد من المؤسسات اللاربحية، لكنَّ كل هذا لا يلغي فكرة أن بعض الأشخاص بما فيهم من خيرية ومبادرة، وبما لديهم من عبقرية وطاقة، يقدِّمون للأمة أشياء كثيرة لا تقدِّمها الجماعات والمؤسسات. وقد نكتشف في المستقبل أنَّ الأعمال المزدوجة تشكِّل حلولًا جيدة، بمعنى أن يكون للمرء نشاطه الخيري والدعوي الخاص، وينسق مع غيره في بعض الأمور التي تحتاج إلى تنسيق.

• ما الذي يجب عمله من أجل تنمية مفهوم العمل الجماعي وتحسينه؟

– العمل الجماعي والمؤسسي مهم للغاية، والروح الجماعية روح سامية وعظيمة، وحتى ننهض به فلا بد من توضيح أهدافه على نحو جيد.

والعمل الجماعي في ظني عبارة عن استدراك لتلافي

القصور في الأعمال الفردية وتكميلها. وعلى كل من يجمع الناس حوله أن يتساءل: لماذا جمعهم؟ وما الذي استفادوه من ذلك؟ وما الذي استفادته الأمة أيضًا؟

ونحن في حاجة على صعيد تربيتنا الأسرية والاجتماعية إلى التأكيد على النجاح الجماعي وفضائل العمل التطوعي، والتأكيد على الأخلاق والآداب التي يجب أنْ نتحلّى بها أثناء انخراطنا في فريق عمل. وعلى الدول أن تساعد في هذا الشأن من خلال سَنِّ القوانين التي تحمي العمل الخيري، وتشجّعه من خلال بثّ الأدبيات التي تحفّز الناس على العمل ضمن مجموعات.

وأعتقد أنَّ التقدم الحضاري بضروراته وإحالاته سوف يرسّخ في وعي الناس أكثر فأكثر أهمية العمل الجماعي، وأهمية الارتقاء به.

• • •

السؤال الثاني عشر

مع أنَّ كلَّ ما تحاورنا حوله حتى الآن يصب في مسألة نقد طرق التفكير السائد، وفي خطأ بعض المفاهيم، لكن ومن أجل تسليط المزيد من الضوء على بعض المضامين الفكرية الخاطئة أودُّ لو تحدَّثنا عما تعتقد أنّه أفكار ومفاهيم مرتبطة بالموقف الشخصي للواحد منا، ونعتقد أنّه يحتاج إلى نوع من التغيير أو التجديد أو التحوير.

- هذا سؤال كبير جدًّا ومهم جدًّا في الوقت نفسه، ولا أدري كيف سأبدأ به، وإلى أين أنتهي لأنني شخصيًّا من المهتمين بقضية تنمية الشخصية الإسلامية؛ حيث أعتقد أنَّ ثلاثة أرباع ما نحن فيه من تأزم فكري يعود إلى السبات العميق الذي يغطُّ فيه الفرد المسلم، وإلى المفاهيم الخاطئة التي يحملها عن نفسه وعن الحياة من حوله.

وتلك المفاهيم في الحقيقة كثيرة، ولكن سأحاول أن أذكر منها ما أعتقد أنه يمثل أهمية خاصة:

أولًا: إن كثيرًا من المسلمين يعاني اليوم من الشعور بالإحباط وانسداد الآفاق. إنَّهم يرون الأمة الإسلامية وهي أشبه بالكلأ المباح، ويرون القهر وأكل الحقوق، كما يرون البطالة وقلة ذات اليد.. وهذا وغيره رسَّخ في نفوس معظم

المسلمين الشعور باحتقار الذات وعدم الأهلية للقيام بأعمال جليلة؛ ولهذا فإنَّ كثيرًا منا فاقدون للحيوية، فهم يؤدُّون أعمالهم بتثاقل وتباطؤ ومن غير أي حماس واندفاع. وهم في الوقت نفسه يضمرون اللوم والعتب على الآخرين الذين يتوهمون أو يظنون أنَّهم لم يمدوا يد العون لهم. فصار الجيل الحاضر المحبط البائس امتدادًا للجيل السابق.

• أليست أوضاعنا جديرة بأن توجد مثل هذه المشاعر والهواجس؟ وما الذي يمكن عمله لإنسان يشعر أنه محاصر من كل الجهات؟

– مهما ساءت الأحوال فإنَّ هناك إمكانية ما للتحسين. هناك أشخاص كثيرون دخلوا السجون لأسباب مختلفة. بعضهم خرج وهو يحفظ القرآن الكريم. ويحتفظ بمعنويات عالية ومتفتحة على الحياة. وبعضهم خرج من السجن وهو مدمَّر نفسيًّا.

وفي حياتنا العامة أشخاص كثيرون عاشوا في ظروف مواتية جدًّا، لم تصل إلى حد المثالية، لكنَّ ذلك لم يجعل منهم أشخاصًا ممتازين. على حين أننا كثيرًا ما رأينا أشخاصًا يعيشون في أوضاع سيئة جدًّا، لكنهم صمدوا وقاموا، وأنجزوا أشياء مذهلة.

• لماذا هذا الفارق؟

- يحدث هذا لأنَّ ملاءمة الظروف لا تشكل إلا بعض شروط الفوز والنجاح. كما أنَّ معاكسة البيئة إذا قابلناها بعزيمة وإصرار فإنها تصلب لدينا روح المقاومة. وتستفز أفضل ما لدينا من طاقة كامنة.

وعلى مدار التاريخ كانت البشرية تتقدَّم من خلال الأزمات أكثر من تقدمها من خلال الرخاء. هذه هي الرسالة التي أود إيصالها لشباب الإسلام على صعيد ارتقائهم الذاتي.

• مرة أخرى أقول: ما الذي يمكن عمله في هذا الشأن؟

- يمكن عمل أشياء كثيرة؛ أولها: طلب المعونة من الله تعالى بصدق وإخلاص، والتوكل عليه والصبر والاحتساب فإنَّ معونة اللّٰه - تعالى - قريبة ومنتظرة ومأمولة.

ثم إنَّ بعض الناس يجد نفسه في أحيان كثيرة عاطلًا عن عمل أي شيء بسبب سعة طموحاته وبُعد أهدافه عن إمكاناته. فليخفِّض من مستوى تلك الطموحات إلى أن يبدأ بالعمل، ثم يزيد فيها تدريجيًا.

إلى جانب هذا وذاك يجب تحديد الأهداف وتوضيحها على نحو جيد، ووضع البرامج التي تخدمها، وسيكون من الحيوي جدًّا امتلاك الروح الإيجابية من خلال الحديث عن الإنجازات وتقليل الحديث عن المشكلات أو عمَّا لا نريد.

وعلى المرء أن يتوّج كل ذلك بالمثابرة والجد والتخطيط والأخذ بالأسباب والتدريب واكتساب المهارات. وسنجد أنَّ لدينا أكثر من سبب للأمل والاستبشار، وأكثر من سبيل للتقدم والازدهار.

ثانيًا: في المسلمين اليوم كثير كثيرٌ من الأشخاص الذين يؤثرون العيش على هامش الحياة، فهم لا يأخذون من الحياة إلا أقلَّ القليل، ولا يعطونها إلا نحوًا من ذلك، إنَّهم يحبون الظل، ويخافون من الأضواء، ويظنون أنَّ في ذلك سلامة دينهم وراحة بالهم.

وهم لا يذكرون أنَّ اليد العليا خير من اليد السفلى، وأنَّ المؤمن القويَّ خيرٌ وأحبُّ إلى اللّٰه من المؤمن الضعيف، كما ورد في الحديث الشريف.

وقد ترتَّب على حب كثير من الأخيار لهذه الوضعية نتيجة سيئة ومحزنة، وهي أن مراكز القوى والتوجيه والقيادة أصبحت في أيدي أشخاص لا يحسبون حساب الآخرة، ولا يملكون الإحساس المطلوب بمصالح الأمة ومستقبلها.

وسيخطئ أولئك إذا ظنوا أن العزلة والانزواء والرضا بأي شيء هي طرق تؤدي دائمًا إلى السلامة. إنَّ العزلة قد تؤدي إلى التحلل الذاتي والخروج من دائرة الحركة إلى دائرة الجمود، وهذه الوضعية تكرِّسُ التخلف، وتجعل المشكلات تتفاقم.

في حين أنَّ مواجهة الصعوبات وتحمُّل المسؤوليات كثيرًا ما يكون السبيل الوحيد لبلورة الشخصية وتحرير الطاقات الكامنة واكتشاف الإمكانات الحضارية، والأهم من كل ذلك فتح حقول جديدة لخدمة الأمة ونفعها والنهوض بها.

تصور معي أن رجلًا مثل عمر بن الخطاب أو عمر ابن عبد العزيز رفض إمرة المؤمنين، وتصور رجلًا مثل أحمد ابن حنبل أو سفيان الثوري ابتعد عن الميدان العلمي واشتغل بالزراعة أو التجارة.

إنَّ المتوقع أن يكون كل واحد من هؤلاء العظماء في وضعية أقل بكثير مما كانوا عليه، ولكانت خسارة الأمة بغيابهم عن ميدان الحكم والعلم خسارة فادحة وعظيمة.

• لكن كثيرًا من الذين أصبحوا شخصيات عامة أو تسلموا مناصب رفيعة تغيرت أحوالهم إلى أسوأ، وفقدوا الكثير من خيرتهم ونبلهم: فماذا ترى؟

لا شكَّ أنَّ للعزلة مخاطرها؛ وأنَّ لتحمل المسؤوليات مخاطره الخاصة به، لكنَّ ما أردتُ التنبيه إليه هو أنَّ من الخطأ الظن أن السلامة مع العزلة أبدًا، وأنَّ الانحراف مع العيش تحت الأضواء أبدًا.

ثالثًا: من ملامح أزمتنا الفكرية على الصعيد الشخصي إدمان التماس الأعذار، والبحث عن مسوِّغ للتقصير في أداء

الواجبات واستغلال الفرص والإمكانات المتاحة، ولارتكاب الأخطاء والوقوع في المعاصي والمحرمات.

وقد ثبت أنَّ عقولنا تملك طاقة هائلة على صناعة المبررات، فأعتى المجرمين لديه شيء يقوله، ويتنصَّل به من جريمته أمام المحكمة، وأنا لا أشك في أنَّ ظروف الناس مختلفة، وأنَّ بعضهم عانى من ظروف صعبة جدًّا، لكنَّ الذي أودُّ ألَّا يغيب عن البال أنَّ الأزمات التي يعاني منها كل واحد منا محكومة بنوعين من الشروط والمؤثرات: شروط ومؤثرات داخلية وشروط ومؤثرات خارجية. وإنَّ تأثير كل ما هو خارجي يظل محدودًا ما لم يزحزح بعض الشروط والمؤثرات الداخلية ويحل محلها، أي يوجد مشكلة داخلية.

• هذه فكرة جميلة ومهمة، لكن نريد مثالاً عليها لو سمحت.

– خذ مشكلة الإخفاق في الدراسة. هذا الإخفاق قد يكون بسبب ظروف الأسرة وكونها – مثلًا – تعيش في غرفة واحدة، أو بسبب أنَّ والد الطالب يأخذ منه وقتًا طويلًا في مساعدته في المزرعة أو في المتجر، وقد يكون بسبب الشقاق والنزاع بين الأبوين، وقد يكون بسبب قصور كبير في وضعية المدرسة، أو بسبب سوء شرح المدرس... هذه الأسباب والعوامل كلها خارجية، بمعنى أنَّها لم تأتِ من قبل الطالب الراسب في صفه. وهذه العوامل تظل محدودة التأثير

ما لم تولّد عند ذلك الطالب الإحباط واليأس، وما لم تؤدِّ إلى تحول رغبته عن الدراسة والاتجاه إلى عمل بديل عنها. حين تُكسر إرادة المقاومة لدى الإنسان، وتتغير حساباته وأهدافه وتطلعاته، فإنَّ هذا يعني أنَّ العوامل الخارجية قد فعلت فعلها، وصارت تعمل في حياته وكأنَّها جزء من قصوره الذاتي، إنَّها تغير في شخصيته وفي نظرته لنفسه وللحياة.

وإذا تأملت في الأسباب التي ذكرناها للإخفاق وجدت أنَّ تجاوزها ممكن.

وقد تجاوزها فعلًا وتجاوز أعظم منها ملايين الشباب والشابات في سائر أنحاء العالم.

والقرآن الكريم يوضح لنا في غير آية أنَّ العامل الداخلي هو العامل المؤثر على وجه التحديد.

وفي هذا يقول جل وعلا: ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [آل عمران: ١٦٥] وقال سبحانه: ﴿ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴾ [آل عمران: ١٢٠]. شيء من التسويغ والتبرير يروِّح عن النفس، ويرفع درجة الثقة بها، لكنَّ ذلك يجب أن يظلَّ محدودًا وبعيدًا عن المبالغة، مع وجوب الإيمان الشديد بأنَّ القصور الذاتي هو العلة الكبرى في كل أشكال التأزم التي نعاني منها.

• المشكلة - دكتور - أنَّ الناس غير قادرين على رؤية الإمكانات الكامنة لديهم؛ ولهذا فإنَّهم يعتقدون أنَّ العقبات التي تواجههم كافية لإقعادهم عن عمل أي شيء!!

- هذا صحيح؛ ولهذا أقول: إنَّ الجهل بالنفس هو أسوأ أنواع الجهل.

ومعظم الناس ليسوا جاهلين بأنفسهم فحسب؛ بل إنهم إلى جانب هذا جاهلون بالخيرات المتاحة لهم في واقع الأمر.

مع التقدم الحضاري يزداد التعقيد وتكثر الخيارات - على خلاف ما يُتَوَهَّم - لكنَّ الجهل يجعلنا نحس بالتعقيد والصعوبات ولا نبصر الخيارات والبدائل.

رابعًا: من ملامح أزمتنا الفكرية على الصعيد الشخصي سوء علاقتنا بالماضي. وأعتقد أنَّنا في حاجة ماسَّة للتأمل في موروثاتنا وفي طبيعة ارتباطنا بتلك الموروثات بما هي رموز للجذور وللامتداد الرجعي. ولا يخفى أنَّه مرَّت على الأمة قرون من الانحطاط والأمية، وفي تلك الحقب والمراحل تكوَّنت آراء وأمثال ومقولات لا تتَّفق مع روح الإسلام، كما لا تتَّفق مع روح عصرنا.

وإذا لم نسلِّط الضوء عليها وننقدها فإنها تكرِّس حالة التأزم الفكري التي نعيش فيها.

• نريد أن تذكر لنا بعض الأمثلة من أجل وضع النقاط على الحروف.

- الأمثلة كثيرة، وأنا لن أتحدَّث هنا إلا عما يمسُّ المفاهيم التي تؤثر في نمو الشخصية.

خذ مثلًا قولهم: (الديك الفصيح من البيضة يصيح).

إنَّ الناس يوردون هذا المثل في بيان أهمية النبوغ المبكر لدى الأطفال. ويفهم كلُّ من يسمع هذا أنَّ الذي لا تبدو عليه مخايل النجابة في الصغر، لا يتوقع له أن يكون شيئًا فذًّا ومتميزًا في الكبر.

ولو تأمَّلت لوجدت أنَّ كثيرًا من الناس لدينا يعتقدون هذا المعتقد وهو معتقد خاطئ، وواقع الحال يرده؛ حيث إنَّ هناك ما لا يحصى من الناس الذين كانوا أشخاصًا عاديين جدًّا في صغرهم، ثم صاروا ذي شأن كبير وخطير في كبرهم. والمرء من خلال التعلم والتدريب والمثابرة قد يصبح إنسانًا عظيمًا، ولو لم يكن يتمتع بذكاء عالٍ ونباهة ظاهرة. هذا المعتقد الذي أشرت إليه كافٍ بمفرده لشلِّ طاقات كثيرٍ من الناس وصرفهم عن التوجه لإنجاز أي عمل كبير.

الناس يقولون أيضًا: (أكبر منك بشهر أعلم منك بدهر).
هذا الكلام كان مقبولًا أيام انتشار الأمية؛ حيث تستفاد الخبرة من مرور الأيام، وليس من القراءة أو مصاحبة أهل

العلم. ثم إنَّ هذا القول: كان يراد منه تقدير كبار السن ومنحهم ميزة خاصة - ونحن مع احترام الكبير - لكنَّ قضية المعرفة لا تخضع دائمًا للسن؛ بل هي تخضع غالبًا للمطالعة والاجتهاد والمجال الذي يمكن أن نراكم خبراتنا من خلاله.

خذ مثالًا ثالثًا على المفاهيم غير الصحيحة والتي ورثناها عن السابقين، إنهم يقولون: (ما حكَّ جلدك مثلُ ظفرك) وهذا القول نردده كلما أوكلنا عملًا لشخص ثم وجدنا أنّه لم يقم به على الوجه المطلوب. ومع إيماننا بأنَّ المرء قد يقضي حاجاته على نحو أفضل مما يمكن أن يفعله له الآخرون، لكن لا يمكن لهذا الفهم أن يشكل أساسًا للعمل في العصر الحديث لأنَّه دعوة إلى المركزية والفردية، ونحن اليوم نحتاج إلى التعاون وتشييد المؤسسات الكبرى التي لا يقوم صاحبها إلا بجزء صغير من الإشراف عليها أو المساهمة في أعمالها.

ونحن اليوم نتحدَّث عن الإدارة بالأهداف، والإدارة من خلال التعويض، وصار في الإمكان من خلال الإدارة الجيدة أن يقدم لك الناس خدمات كبيرة، لا تستطيع أن تنجزها بنفسك، فأيدينا لا تستطيع حك ظهورنا، ونحن لا نستطيع إدارة كل أعمالنا، لكن من خلال التعاون يمكن إنجاز أشياء كثيرة على أفضل وجه ممكن.

• يقولون: إنَّ الأمثال العامية وكذلك الفصيحة تعبِّر عن خبرات الأمم والشعوب؛ بل تتكثَّف فيها تجارب عريقة كثيرة، فكيف يمكن أن نجمع بين هذا وبين نقدك لتلك الأقوال؟

– لا ريبَ في أنَّ الأمثال والحكَمَ والمقولات العامة تعبر عن خبرة وتجربة وملاحظة، وهي دائمًا على صلة بواقع يكاد يكون مستمرًا في كلِّ الأزمنة ولدى كلِّ الشعوب، لكن سيكون من الخطأ الظنُّ أنَّ تلك الأمثال والحِكَم والمقولات العامة تعبر عن خبرات كاملة أو رؤًى شاملة، ومن الخطأ الظن كذلك أنَّها تعبر عن الواقع المعيش.

• لماذا؟

– لأنَّ العقل البشري يَصدر دائمًا عن رؤية جزئية، ولا يرى إلا بعض أجزاء الحقيقة. تلك الأمثال التي ذكرتها، وغيرها كثير، عبارة عن مقولات عامة أُطلقها أفراد، ولم تصدر عن مجمع علمي أو هيئة بحثية – مثلًا – ولو أنَّها عُرِضَت اليوم على مجموعة من المفكرين لما وافقوا على كثير منها، وهم قطعًا سيُدخلون عليها الكثير من التعديلات؛ أضف إلى هذا أنَّ مُطلق المثل قد يكون سوداويَّ المزاج، وقد يكون أطلقه وهو مأزوم، وقد يكون على العكس من هذا رجلًا متفائلًا إلى حد الإغراق في الخيال، ويكون بذلك بعيدًا عن الواقع.

الخلاصة أنَّ هذه الأمثال لا تعبر إلا عن جزء من الحقيقة؛ ولهذا فإنَّ البناء عليها لا يكون صحيحًا.

خامسًا: وهذا المفهوم الأخير بين المفاهيم التي ذكرتها أنها تحتاج إلى إعادة نظر، وهو يتعلَّق بتوقعاتنا وأمزجتنا وأمور من هذا القبيل. والذي أحبُّ أن أقوله في البداية: هو أنَّ الناس كلما خطَوا خطوات إضافية في مدارج الحضارة زادت طموحاتهم واتسعت آمالهم. وصارت حساسيتهم نحو ما يخالف أهواءهم وميولهم أشد وأكبر؛ لهذا فإنَّ كثيرًا منهم يتعكر مزاجه اليوم من أمور لم يكن السابقون يأبهون لها. وكثيرًا من الناس صاروا اليوم يتوقَّعون أن تسير الأمور على ما يشتهون ويرغبون، وإذا لم يحدث ذلك فإنَّ الحياة تصبح في نظرهم شيئًا لا يطاق، وهذه الوضعية تحتاج إلى تغيير، وهي ناشئة من رؤية خاطئة.

نحن مهما بذلنا من أسباب لا نملك النتائج؛ لأننا نعمل في ظل نظم مفتوحة؛ ولذا فإنَّ العلاقة بين المقدمات التي هيأناها والنتائج التي ننتظرها تظل لينة وغير أكيدة؛ فالأمر في نهاية المطاف بيد اللَّه - تعالى - لا مؤخرَ لما قدَّم ولا مُقدِّمَ لما أخَّر.

ومن وجه آخر فمن الذي يستطيع أن يقول: إنَّ حدوث ما نرغب فيه، أو حدوث ما لا نرغب فيه بشكل كارثة؟ علمًا بأنا طالما خشينا وقوع كثير من الأمور، ثم وجدنا فيها من رحمة اللَّه ولطفه الشيء الكثير، واللَّه - تعالى - يعلمنا هذه

المسألة بأوضح بيان حين يقول: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦].

إنَّ علينا أولًا أن نعمل أفضل ما يمكن عمله، ونعد أفضل ما يمكن إعداده، ثم بعد ذلك نرضى بما قسم الله لنا. ونفوض أمرنا إليه.

إنَّ المسلم يحرر إرادته من سلطات الرغبات والشهوات والطموحات غير المشروعة، ثم يجعلها منقادة طائعة لما يريده الله تعالى ويحبه له. مع التسليم التام والرضا الكامل؛ لأنَّ الله تعالى أرحم بالعباد وأدرى بما يصلحهم.

• ألا تلاحظ – دكتور – أنَّ الناس يجزعون ويخافون أكثر مما ينبغي من الأشياء التي تخالف أهواءهم؟

– لا شكَّ في هذا؛ فقد منحنا الله تعالى قدرة هائلة على التكيف، وهناك دراسات على أصحاب أمراض مزمنة وصعبة جدًّا، مثل مشلولي الأطراف الأربعة، وقد دلَّت تلك الدراسات على أنَّهم يتَّمتعون بقدر جيد من السعادة وراحة البال.

والمسلم الذي يعتقد أنَّ ما يصيبه من أذًى هو ابتلاء أي أداة نجاح وسبيل فوز إذا صبر واحتسب، أقول: المسلم أوْلى بالرضا والاطمئنان النفسي من غيره.

• • •

السؤال الثالث عشر

هل تعتقدون أنَّ العقل المسلم يسير في الاتجاه الصحيح نحو إدراك وظائفه ومهماته الحضارية الجديدة؟

– أتصور أن علينا أن نفرِّق بين العقل العام وعقل الصفوة أو صفة الصفوة.

الصفوة من الإسلاميين مدركون – ولا شكَّ – لمخاطر الانزلاقات والمنحنيات التي نمر بها اليوم؛ ولهذا فإنَّهم يُنَبهون الناس إليها، ويحاولون حجزهم عن الانجرار إليها. لكنَّ المشكلة تكمن – في نظري – لدى الجماهير المسلمين من مثقفين وعامة؛ حيث إنهم يقتربون اليوم أكثر فأكثر من الرؤية الغربية للأشياء. وبصراحة إنِّي خائف اليوم من أن ينتقل كثيرون منا من التخلف الفكري في صورة ما إلى التخلف الفكري في صورة أخرى.

• هذا شيء مثير، وأريد شرحًا أكثر لهذا الأمر. ولكن قبل أن تشرح ما تريد. هل تعتقد أن الرؤية الغربية للأشياء خطرة إلى هذا الحد؟

– ستجد الجواب على مداخلتك أو اعتراضك ضمن جوابي العام عن التوجيه الجديد لدى العقل العام لدينا.

ما يقلقني فعلًا هو أننا على مدار تاريخ هذه الأمة كنا

نتوقّع من العقل القيام بدور إرشادي مهم في الحث على الفضائل والزجر عن المصائب والرذائل؛ ولهذا فإنَّ الصورة الذهنية عن الإنسان العاقل صورة زاهية وأخلاقية؛ فالإنسان العاقل إنسان يتّصف بالأناة والتريث، وهو إنسان متوازن يملك شهوات نفسه، ويملك القدرة على لجمها عن نزواتها. هذه الصورة بدأت تتغير على نحو خفي أحيانًا، وعلى نحو جلي أحيانًا أخرى. وهذا التغير نابع في الحقيقة من تغير اهتمامات كثير من المسلمين وتوجههم أكثر فأكثر إلى النجاح الدنيوي والتفوق على الأقران وتحسين سوية الوظائف والأعمال والمهام.. بعيدًا عن النظرة الأخلاقية والشرعية للطرق والوسائل التي يتم بها كل ذلك.

إنَّ الناس يركزون أنظارهم أكثر فأكثر بالتقدير والإعجاب إلى الإنسان الذكي الألمعي المبدع والمخترع والقادر والمالك عوضًا عن الإنسان الخلوق المتزن المتماسك الرحيم المستقيم. وهذا يحدث نتيجة التركيز على دور العقل بوصفه آلة صمّاء تصبُّ القوالب، وتصوغ النماذج.

• أنت في كتبك كثيرًا ما تتحدَّث عن الإبداع والذكاء والنجاح، والآن تخاف من اندفاع الناس نحوها فكيف يمكن تفسير ذلك؟

– سيكون من السيئ جدًّا أن تستخدم العقل أداة في تحقيق المصالح والمطامع الشخصية وفي اكتشاف الفرص

وتحقيق الفوز على الخصوم والمنافسين، وننسى دور العقل في إنتاج الحكمة ودلالة الناس على مسؤولياتهم الأخلاقية نحو القضايا المختلفة.

وأنا ما زلت أعتقد بقوة أنَّ الأمة بحاجة إلى عددٍ كبير من المتفوقين ولكن مَن هذا الذي يقول: إنَّه ليس لديك سوى خيارين، فإما أن تكون متفوقًا مارقًا من القيود الأخلاقية والالتزامات الشرعية، أو أن تكون شخصًا عاديًا بمسحة أخلاقية؟!

إنَّ الذكاء والتفوق في جانب من جوانب الحياة متوفر لدى كثير من اللصوص والظَّلَمة والجبارين، وأولئك الذين جرُّوا على الأمة الدمار والخراب. ونحن لا نريد أن ننتقل من تخلف العجز والجهل والضعف وقلة الحيلة إلى تخلف الطيش والرشوة والربا وأكل الحقوق والانغماس في المعاصي والشهوات إلى الآذان. وهذا تلوح بوادره في جميع بلدان المسلمين مع استثناءات قليلة محدودة.

• ما تقوله واقع فعلًا، لكن لماذا يحدث هذا؟ وهل هو خاص بنا؟

- ما يحدث ليس خاصًا بأمة دون أمة؛ بل إنه يغزو كل الأمم والشعوب التي تؤثر في حياتها عقائد أو أيدلوجيات معينة.

والعولمة بطبيعة عملها وطبيعة حركتها تُحدث تغييرات

ثقافية واسعة المدى، وما ذكرته هو بعض ما تحدثه.

ونحن - المسلمين - نشعر بالأذى من هذه الوضعية أكثر من غيرنا؛ لأنَّ لنا رؤية واضحة للعالم، ونغار على تلك الرؤية، ونحرص على استمرار صفائها وفاعليتها في صياغة السلوك.

أما لماذا يحدث هذا؟ فإنِّي أعتقد أنَّه يحدث نتيجة عاملين أساسيين:

الأول: ضعف الأنشطة الروحية والأدبية في حياتنا معًا جعل حياتنا جافَّة ومتيبسة.

والعامل الثاني يتلخَّص في هذه الموجة المادية الحسية النفعية التي تجتاح العالم من أدناه إلى أقصاه، وتفرض بمتطلباتها وأدبياتها على الناس حركة لا تهدأ في تلبية حاجات آنية بعيدًا عن الأهداف الكبرى والغايات النهائية التي يجب أن يسعوا إلى تحقيقها.

• هل علينا أن نستسلم لهذه الوضعية، أو أنَّ هناك إمكانية لعمل شيء ما؟

- لا يصح أبدًا أن نستسلم ونرضخ، وفي إمكاننا أن نفعل أشياء كثيرة جدًّا، وفي مقدمة ما يجب عمله القيام بنشر الوعي بين الناس بهذه التحولات التي تخترق بنيتهم العقلية والفكرية، وتؤثر بالتالي في مجمل أوضاعهم الروحية

والخلقية والنفسية. وعلينا إلى جانب هذا أن ندعم الجانب الإيماني والخلقي إلى أقصى حد ممكن، وأن نعمل على تأسيس تيار روحي جديد ملتزم وفاعل؛ بالإضافة إلى تذكير الناس بالرؤية الإسلامية للحياة وبواجبات المسلم تجاه ربه - جل وعلا - تجاه دينه وأمته.

• كلمة ختامية....

- أنا شاكر لإتاحة هذه الفرصة للتحدُّث عن بعض القضايا المتصلة بأزمتنا الفكرية. وهناك في اعتقادي الكثير الكثير من القضايا التي لم نتطرَّق إليها. وهي لا تقلُّ أهمية عما تحدثنا فيه. ولكن أودُّ هنا أن أعتذر للقارئ الكريم عن الروح النقدية التي سادت هذا الحديث مما قد يشعره بالتشاؤم والإحباط. وأنا في الحقيقة مضطرٌ إلى هذه المسحة في هذا الحوار؛ لأنَّنا نتحدَّث عن أزمة وليس عن فتوحات وانتصارات وإنجازات. والحديث عن الأزمات، وإن كان مُرًّا في ظاهره ونكهته، لكنَّه حلو في جوهره وعواقبه، وحلاوته لا تقلُّ عن حلاوة حديث طبيب يقدِّم لمريضه نصائح توضح له المخاطر التي عليه أن يحذرها والأدوية التي يجب أن يتناولها.

والحمد لله على ما وفَّق وهدى، وله المنة في الأولى والأخرى.

• • •

ملخص
الأفكار الرئيسة للحوار

- الوعي البشري بطبيعته يستخدم المقارنة أداة للفهم والاستيعاب.

- من الصعب تخليص المسلمين من مشاعر اليأس والإحباط من غير حدوث تحسن حقيقي في أوضاعهم المعيشية والحضارية عامة.

- بين التخلف العام والتخلف في الفكر علاقة جدلية مطردة.

- من النادر أن تجد مجتمعًا يفكر أبناؤه تفكيرًا مستقيمًا وهو مبتلًى بفقر المعلومات أو هو متخلف في أنظمته السياسية والإدارية.

- النقص في الذكاء لا يشكل في أي مكان من العالم ظاهرة اجتماعية؛ إنه مشكلة فردية.

- يعود القصور في التفكير إلى ضحالة المعرفة وتكبيل العقل بعادات تفكيرية سيئة، وإلى سيطرة الأفكار الخاطئة.

- ليس هناك شعب يفكِّر كلُّ أبنائه بطريقة صحيحة، كما أنه ليس هناك شعب يفكر كل أبنائه بطريقة خاطئة على نحو دائم.

- القاعدة تقول: كل أمر إذا حمَّلته فوق طاقته فإنك تخسره أو تكاد.

- كلما أوغل الناس في التحضر والرفاهية زاد اهتمامهم بالتفاصيل، وصار اهتمامهم بالمبادئ والأصول أقل. وهذا مؤسف.

- إن التعميم في كثير من الأمور يشكل خطأً فادحًا يجب أن نحذر الوقوع فيه.

- إن البيئة حين يغلب عليها الجهل أو التعصب.. تترك في أبنائها ما يشبه الوباء، وتكون النجاة استثناءً.

- في البيئة المتخلفة علميًا وتقنيًا يميل الناس على نحو عام إلى تقدير كل شيء فطري على مقدار ما يحطون من قدر الأشياء المكتسبة.

- إنَّ العقل بنية مزودة بمبادئ وقدرات عظيمة لكنها محدودة.

- من معالم أزمتنا الفكرية النظر إلى العقل على أنه بنية مكتملة ومعزولة، مما يُقعد الناس عن تطوير عقولهم وتنميتها.

- العقل عبارة عن قدرات وإمكانات ومفاهيم وبدهيات ملتبسة بالمعطيات المعرفية التي في حوزتنا وبالمشكلات التي نعالجها.

– إن مزيدًا من الفهم لطبيعة النظام اللغوي سوف يقينا من الوقوع في شباك التصلب الذهني.

– لا يستطيع العقل من خلال مبادئه وقواه الفطرية التفريق بين المهم وغير المهم، والآمن والخطر، واللائق وغير اللائق.

– الأحكام العقلية المحضة لا تختلف باختلاف اللغات والأعراف والثقافات والأديان.

– الثقافة هي التي تفصل في معظم شؤوننا، وعدم إدراكنا لهذا، وظننا أنَّ العقل المجرد هو الذي يفصل فيها زهدنا في الاستثمار في المعرفة.

– عقولنا بِنًى يسهل خداعها، وهي في أحيان كثيرة تخطئ حين نزودها بمعلومات خاطئة.

– كثيرًا ما تكون مشكلتنا في فهم نوعية المطلوب من الأسباب لتحقيق نتائج بعينها.

– لا ينبغي لأي شخص أن يقيم حساباته على أساس ما سيخرقه اللّٰه له من السنن الكونية.

– في بيئة تنتشر فيها الأمية وضعف التثقيف سيكون من الصعب نشر المفاهيم والمعارف المتعلقة بالعقل وبطبيعة عملياته ومشكلاته.

– عمل المفكرين والمصلحين أشقُّ من عمل الأطباء؛

فالأطباء يتعاملون مع مرئي ومحسوس، والمفكرون يتعاملون مع تعريفات ومصطلحات ورموز ودلالات ودراسات وأرقام...

- إنَّ كثيرًا من المخاطر التي تحيط بالأمة غائب عن وعينا وعن اهتمامنا؛ لأنَّ معرفتها تحتاج إلى معرفة، ولا مشكلات من غير معرفة.

- التقدم الحضاري يرفع درجة حساسية الناس نحو المشكلات بما يوفر لهم من الرفاهية.

- إن المفاهيم الجيدة والمعايير الواضحة ومنهجيات البحث المتقدمة هي الأدوات الأساسية لفهم الأخطار والمشكلات وتحديد الموقف الجديد منها.

- نحن اليوم نملك حساسية نحو المخاطر المباشرة مهما كانت صغيرة، على حين أن وعينا مصاب بالتبلد تجاه الأخطار الكبيرة غير المباشرة.

- لدى العالم النامي دائمًا شيء مما لدى غيره، لكنَّه أقل مما هو مطلوب، وأقل مما هو ممكن، وأدنى مستوًى.

- في الأمور الإنسانية كثيرًا ما نجد أنفسنا عاجزين عن العثور على تعريفات جامعة مانعة؛ مما يجعل وجود أشياء خارجة عن القاعدة أمرًا لا مفر منه.

- لن نستطيع أن نتقدم حتى نرضخ للسنن الربانية،

ونحاول فهمها على نحو عميق.

– إسقاط القاعدة بالمثال الشاذ، هو إضفاء نوع من المشروعية المزيفة على دخول البيوت من نوافذها عوضًا عن إتيانها من أبوابها المشروعة.

– وجود الأعداء كثيرًا ما يحجزنا عن أن نصاب بالترهل الحضاري والتحلل الذاتي.

– إنَّ عند جميع الأمم طموحاتٍ ومتطلباتٍ وقواسمَ مشتركةً، وعلينا أن ننظر إليها عبر معايير واحدة.

– لم يكن السبب الرئيس في سقوط الدولة العثمانية تآمر الغرب عليها – مع قوته – وإنما ما أصابها من فساد داخلي، ومن عدم قدرتها على استيعاب المعادلات الجديدة التي أوجدها التقدم العلمي والتقني الغربي.

– سوء الداخل ينعكس قطعًا على علاقتنا مع الخارج؛ حيث لا يمكن أن تقيم ذاتٌ ضئيلة علاقاتٍ متكافئةً مع ذاتٍ قوية ومتفوقة.

– إنَّ المهم أن ندرك أنَّ الغرب تركنا وشأننا في أمور كثيرة، كما أن حكَّامنا تركونا وشأننا أيضًا في أمور كثيرة، وقد تصرَّفنا في كلتا الحالتين على نحو سيئ ومخجل!

– إذا عرفنا نطاق الإمكانية المتاحة وأخذنا في العمل في إطار تلك الإمكانية فإنَّ العمل نفسه يوسِّع ذلك الإطار.

- هذه الأمة لا تسقط بسبب ضغط خارجي، ولكن قد تسقط إذا تاه الدليل ونفد الزاد وحفيت الأقدام.

- الأمم العظيمة حين تتعرَّض لعدوان خارجي تسعى إلى تحصين الداخل؛ لأنَّه هو العامل الحاسم في مقاومة ضغوطات الخارج.

- قد آن لنا أن ندرك أن العلاقات الدولية لا تدار على أساس الصداقة أو الرحمة أو المروءة؛ ولكن على أساس القوة والمصلحة.

- قد ثبت من خلال النظر المتأني أنَّه ليس هناك شيء بسيط؛ حيث إنَّ كلَّ شيء مادي ومعنوي متَّصل بشبكة من العلاقات تحوِّله إلى شيء مركب وممتد.

- في كلِّ مخلوق من مخلوقات الله عنصر غيبي استأثر الله بعلمه وحجبه عن عباده، وهذا يجعل إحاطتنا بكنه الأشياء دائمًا ناقصة.

- التحليل السطحي لأيِّ مشكلة يجعل الحلول سطحية، ويجعل أعداد الناس الذين يمكن أن يشتركوا في مواجهتها محدودة.

- الخيال مهما كان خصبًا لا يستطيع أن يذهب بعيدًا عن حدود الخبرة.

- في كلِّ الأحيان سوف نفكِّر سطحيًا إذا كان زادنا

المعرفي محدودًا.

- الفقر في الحصيلة اللغوية والأمية عاملان جوهريان في لجوء الناس إلى الحلول السطحية والمختزلة.

- الإنسان كائن عاطفي، والروح والعاطفة هما مكمن وجوده الحقيقي.

- إنَّ دلالات الحقيقة والمجاز واختلاطها تسهِّل للأهواء التغلغل في التعبيرات والأحكام.

- المنهج الرباني يحثنا على أن نسعى إلى رؤية الحقيقة على نحو موحَّد من أي زاوية تمَّ النظر إليها ومهما كانت هوية الناظر.

- إنَّ الإيمان بأهمية كشف الحقائق وأهمية توظيفها يعد بحق أهم عامل بين عوامل التقدم العلمي والتقني الذي تنعم به البشرية اليوم.

- لا بدَّ لتزوير الحقائق من أن يؤدي إلى التأزم الفكري، وأن يكون في الوقت نفسه ثمرة من ثمار التخلف الشامل الذي تعاني منه الأمة اليوم.

- العواطف والميول عمياء، وكثيرًا ما تكون ردود أفعال على مثيرات معينة.

- التفكير في إطار العاطفة يتم في ظلال الاختلال العام للمنطق الشخصي، وفي ظلال فقدان المرء للتوازن والاعتدال.

- إنَّ من شأن انتشار الكتابة والتثقيف عن طريق المقروء - وليس المسموع - توفير دور أكبر للحكم العقلاني وللمنطق والمعايير العلمية.

- الحقيقة أنَّ العولمة ليست فرصة لإنقاذ الشعوب الضعيفة، ولا هي مؤامرة عالمية كبرى على الفقراء.

- العولمة تجمع بين الأزمة والفرصة، وبين ما وجد نتيجة نموّ طبيعي، وما وجد لخدمة أثرياء العالم وأباطرة المال.

- يقضي المشروع والعقل بأن نتَّخذ من التفاوت القائم بيننا ميدانًا للمقارنة والموازنة والفهم العميق.

- كثيرًا ما تعمل العاطفة في اتجاه مضاد لمقتضيات البصيرة والحكمة.

- يعني الالتزام: التمسك بقطعيات لا تقبل الجدل، أما التعصب فإنَّه يعني: الاقتناع العميق والتحيز المطلق لأمور خلافية اجتهادية متنازع عليها.

- إنَّ تثقيف الناس بمواطن التماسّ بين العقل والعاطفة والذات والموضوع يساعدهم على تحرير عقولهم من سيطرة عواطفهم.

- المفاهيم بالنسبة إلى العقل أشبه بالنظَّارة إلى العين العليلة.

- كلما كثرت التفاصيل وتعقَّدت المعطيات وكثرت

الخيارات وجد العقل نفسه عاجزًا عن التعامل معها من أفق إمكاناته الأساسية بعيدًا عن المعرفة والخبرة.

– المفهوم القاصر هو مفهوم صحيح لكنَّه يأخذ طابع الجزئية أو طابع السطحية، إنَّه مفهوم جيد على مستوى من المستويات أو في حالة من الحالات.

– في بعض الأحيان يكفي لتقزيم إنسان وشل قدراته أن يُحَمَّل دماغه على مفهوم خاطئ عن ذاته أو بيئته أو عدوه.

– إنَّ شخصًا متوسط الذكاء يمكن أن يحقق من الفوز والنجاح أكثر بكثير مما يحققه شخص ذكي لكنه مهمل أو جاهل.

– لأسباب موضوعية يحل كثير من الناس عاداتهم وتقاليدهم في محل عقائدهم ومبادئهم الكبرى، عوضًا أن تكون هذه الأخيرة موجهة لها ومهيمنة عليها.

– إنَّ العقل – وهو يستوعب الأفكار ويولِّد المفاهيم ويوجد التطبيقات العملية – يظل عرضة للوقوع في الوهم والخطأ. ومن هنا كانت الحاجة إلى التقنية الفكرية المستمرة.

– كلما خيَّم الجهل على أمة من الأمم زاد اختصارها للقضايا الكبرى بعبارات صغيرة، ثم انصرفت عن التنظير والعمل معًا.

- تعني الحرية المسؤولة أن يتصرَّف المرء وفق مبادئه وبرقيب من نفسه ودون أن يلحق الضرر بأحد.

- يتمثل جوهر الحرية في القدرة على الاختيار. وليس ثمة اختيار إلا إذا وجدت بدائل نختار بينها.

- لا يمكن لمجتمع تسيطر عليه الأهواء والشهوات والفقر والجهل والاستبداد إلا أن يكون مجتمعًا فاقدًا للحرية مهما ردَّدَ من شعارات أو أطلق من ادِّعاءات.

- إنَّ الذين يتحدَّثون عن الحرية بوصفها حلمًا ذهبيًّا كثيرون، لكنَّ الذي يَثْبُت أنَّه لا يترسَّخ هذا المفهوم إلا إذا وُجِدَت في المجتمع أعداد كبيرة ترفض الضيم، وتتأبى على الظلم مهما كلفها ذلك من تبعات.

- من الصعب تحقيق تقدم عام على صعيد الحريات من غير حدوث تقدم سياسي واقتصادي واضح.

- إنَّ اجتماع الناس بطبيعته يثير بينهم الكثير من التوتر والكثير من النزاع وتصادم الآراء والرغبات والتطلعات والمصالح.

- حين يجتمع الناس بعضهم ببعض فإنَّ اجتماعهم يكون اختبارًا حقيقيًّا لما تلقوه من تربية، ولما يحملونه من قيم.

- من المهم أن ننظر إلى العمل الجماعي على أنه فرصة للعمل على تهذيب زوائدنا الشخصية وتهذيب نفوسنا.

- العمل في حدِّ ذاته مع جماعة لا يشكل فضيلة، لكن ما ينتج عنه من نفع وخير وإصلاح هو الفضيلة.

- كلما تحسَّن وعي الناس أدركوا أن كثيرًا من مشكلات الحضارة لا يمكن مواجهتها إلا عن طريق تشكيل عدد هائل من الأطر والمؤسسات الطوعية والخيرية واللاربحية.

- إن معظم ما نحن فيه من تخلف يعود إلى ما يغطُّ فيه الإنسان المسلم من سبات، وما يسيطر عليه من مفاهيم خاطئة.

- مهما ساءت الأحوال فإنَّه تظل هناك إمكانية ما للتحسين ولعمل شيء جيد.

- إن المواجهة لتحديات البيئة بصلابة تنمي لدينا روح المقاومة، وتستفز أفضل ما لدينا من طاقات كامنة.

- سيكون من الخطأ الاعتقاد أنَّ العزلة والبعد عن الأضواء هي طريق مضمون لسلامة الدين.

- إنَّ تأثير كل ما هو خارجي يظل محدودًا وهامشيًا ما لم يزحزح بعض الشروط والمؤثرات الداخلية، ويحل محلها، أي أنه يوجد مشكلة داخلية.

- المرء من خلال التعلم والتدريب والمثابرة قد يصبح إنسانًا عظيمًا ولو لم يتمتع بذكاءٍ عالٍ أو نباهةٍ ظاهرةٍ.

- لا تعبِّر الأمثال الفصيحة وكذلك الشعبية دائمًا عن

خبرات كاملة أو رؤًى شاملة، وهي في معظمها إطلاقات فردية ليس أكثر.

- كلما خطا الناس في دروب الحضارة خطوات إضافية اتسعت طموحاتهم، وصارت حساسيتهم نحو من يخالف أهواءهم أشد.

- إنَّ أيَّ عمل يتم في ظل نظام مفتوح تكون العلاقة بين مقدماته وأسبابه لينة وغير أكيدة.

- لا معنى لتحرير إرادتنا من سلطة البشر وسلطة الأهواء والشهوات إذا لم نجعلها طوع ما يريده الله جل وعلا منا.

- إن التوازن في القضاء والقدر أن نعمل أفضل ما يمكن عمله، ونعد أفضل ما يمكن إعداده، وبعد ذلك نرضى بما قسم الله لنا.

- إنَّ من المخيف حقًّا أنَّ العقل العام لدى جماهير عريضة من المسلمين يقترب أكثر فأكثر من الرؤية الغربية لكثير من الأشياء، وهذا قد يجعلهم ينتقلون من التخلف في صورة إلى التخلف في صورة أخرى.

- إنَّ أنظار كثير من المسلمين تتجه اليوم إلى النجاح الدنيوي بعيدًا عن النظرة الأخلاقية والشرعية للطرق والوسائل التي يتم بها ذلك.

- أكثر فأكثر تتحول النظرة إلى العقل من شيء يؤمّن

التوازن والأناة، ويلجم الشهوات إلى شيء هو أشبه بالآلة الصماء التي تصب القوالب، وتصوغ النماذج.

نحن لا نريد أن ننتقل من تخلف العجز والجهل والضعف وضيق الأفق إلى تخلف الطيش والرشوة والربا وأكل الحقوق والانغماس في الآثام والشهوات.

• • •

السيرة الذاتية للمؤلف

د. عبد الكريم بكار.

حصل على البكالوريوس من كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر (١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م)، وعلى الماجستير في عام: (١٣٩٥هـ/١٩٧٥م)، والدكتوراه في عام: (١٣٩٩هـ/١٩٧٩م) من قسم أصول اللغة بالكلية نفسها بجامعة الأزهر، وكان عنوان رسالة الدكتوراه: « الأصوات واللهجات في قراءة الكسائي ».

قاد د. عبد الكريم بكار مسيرة أكاديمية طويلة، دامت (٢٦ عامًا) بدأت عام: (١٣٩٦هـ/١٩٧٦م) في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في القصيم (السعودية)، لينتقل بعدها إلى جامعة الملك خالد في أبها في عام: (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)، حصل خلالها على درجة الأستاذية في عام: (١٤١٢هـ/١٩٩٢م) وليبقى فيها حتى استقال منها عام: (١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م)؛ ليتفرغ للتأليف والعمل الثقافي والفكري؛ حيث يقيم في العاصمة السعودية الرياض.

وتركزت المسيرة الأكاديمية للدكتور بكار على تدريس اللُّغويات، والتي شملت مواد المعاجم اللُّغوية، دلالة الألفاظ، الأصوات اللغوية، اللهجات العربية، القراءات القرآنية واللهجات، النحو، الصرف، المدارس النحوية وتاريخ النحو. كما قدم د. بكار خلال تلك الفترة عددًا من الأبحاث والكتب المتخصصة والتعليمية في مجال اللُّغويات، وأسهم في النشاط الأكاديمي للجامعات التي عمل بها من خلال رئاسته لعدد كبير من اللجان العلمية، ورئاسته لقسم النحو والصرف وفقه اللغة لعدة سنوات، ومساهمته في وضع المناهج، والإشراف على البحوث، وتحكيم الدراسات العلمية.

وللدكتور بكار نشاط مكثف على صعيد المحاضرات، والندوات الفكرية والثقافية والدورات التدريبية، وشارك في المئات منها في المملكة العربية

السعودية والكويت وقطر والبحرين وتركيا ولبنان ومصر والأردن وماليزيا والسودان. كما يقدم حاليًا برنامجًا أسبوعيًا في قناة دليل الإسلامية باسم: « آفاق حضارية »، وبرنامجًا شهريًا بقناة المجد باسم: « معالي »، وكان د. بكار قد قدم برنامجًا تلفزيونيًا أسبوعيًا في قناة المجد باسم: « دروب النهضة » لمدة عامين، وبرنامجًا إذاعيًا أسبوعيًا باسم: « بناء العقل في القرآن الكريم »، وبرنامجًا إذاعيًا أسبوعيًا آخر باسم: (العلاقات الإنسانية في المجتمع الإسلامي) استمرا لمدة ستين بإذاعة القرآن الكريم بالرياض؛ بالإضافة لاستضافته في برامج عديدة على قناة الرسالة، وقناة إقرأ، وقناة الناس والتلفزيون السعودي.

ويحرص د. بكار على أن يقدم رؤاه الفكرية والتربوية من خلال مشاركته الواسعة في مختلف الصحف، والمجلات العربية المتخصصة والعامة؛ حيث يكتب د. بكار مقالات دورية في مجلة البيان اللندنية ومجلة الإسلام اليوم الشهرية، ومجلة: « مهارتي » الصادرة عن جامعة الملك سعود وموقع « الإسلام اليوم »، كما يشارك باستمرار منذ أكثر من عشرين سنة بمقالاته ودراساته في عدد من المجلات الدورية الأخرى.

ود. بكار عضو في المجلس التأسيسي للهيئة العالمية للإعلام الإسلامي التابعة لرابطة العالم الإسلامي (الرياض)، وعضو الهيئة الاستشارية بمجلة: « الإسلام اليوم » (الرياض)، وعضو الهيئة التأسيسية لقناة دليل، وعضو في مجلس الأمناء لقناة سنا الفضائية (عمان).

ويعد د. بكار أحد المؤلفين البارزين في مجالات التربية والفكر الإسلامي؛ حيث يسعى إلى تقديم طرح مؤصل ومجدد لمختلف القضايا ذات العلاقة بالحضارة الإسلامية، وقضايا النهضة والفكر والتربية، والعمل الدعوي.

وللدكتور بكار حوالي ثلاثين كتابًا في هذا المجال؛ لقي الكثير منها رواجًا واسعًا في مختلف دول العالم العربي، كما قدم د. بكار للمكتبة الصوتية أكثر من مائة ساعة صوتية مسجلة ومنشورة في مكتبات التسجيلات الصوتية.

- وفيما يلي قائمة بالكتب والدراسات الأكاديمية المتخصصة:

أصول توجيه القراءات ومذاهب النحويين فيها حتى نهاية القرن

الرابع الهجري، بحث غير منشور، (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م).

٢ - ابن مجاهد شيخ قراء بغداد، مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية بالقصيم، (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م).

٣ - تحقيق كتاب: « القواعد والإشارات في أصول القراءات »، للقاضي أحمد بن عمر الحموي، دار القلم، دمشق (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).

٤ - الصفوة من القواعد الإعرابية، دار القلم، دمشق (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م).

٥ - تحقيق كتاب « رد الانتقاد على الشافعي في اللغة » للإمام البيهقي، دار البخاري، بريدة، (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).

٦ - أثر القراءات السبع في تطور التفكير اللغوي، دار القلم، دمشق (١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م).

٧ - المهدوي ومنهجه في كتابه الموضح، دار القلم، دمشق، (١٤١١هـ/ ١٩٩١م).

٨ - ابن عباس مؤسس علوم العربية، دار السوادي، جدة، (١٤١١هـ/ ١٩٩١م).

٩ - دراسة لإنشاء مركز لتعليم اللغة العربية، كلية اللغة العربية بأبها، (١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م).

- أمّا الكتب التربوية والفكرية الصادرة للدكتور بكار؛ فمنها الكتب التالية:

١ - فصول في التفكير الموضوعي، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية (١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م).

٢ - نحو فهم أعمق للواقع الإسلامي، دار المسلم، الرياض، (١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م).

٣ - من أجل انطلاقة حضارية شاملة، دار المسلم، الرياض (١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م).

٤ - مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، دار المسلم، الرياض، (١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م).

٥ - مدخل إلى التنمية المتكاملة، دار المسلم، الرياض، (١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م).

٦ - في إشراقة آية، دار السلام، القاهرة، (١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م).

٧ - من أجل شباب جديد، بحث منشور في وقائع المؤتمر السنوي للندوة العالمية للشباب الإسلامي، عمّان، (١٤١٨هـ/١٩٩٨م).

٨ - حول التربية والتعليم، دار المسلم، الرياض (١٤١٩هـ/١٩٩٩م).

٩ - العولمة، دار الأعلام، عمّان، (١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م).

١٠ - القراءة المثمرة، دار القلم، دمشق، (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).

١١ - العيش في الزمان الصعب، دار القلم، دمشق، (١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م).

١٢ - مسار الأسرة، دار السلام، القاهرة، (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م).

١٣ - القواعد العشر، دار السلام، القاهرة، (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م).

١٤ - الترابط الأسري، دار السلام، القاهرة، (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م).

١٥ - هي هكذا، دار السلام، القاهرة، (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م).

١٦ - تكوين المفكر: خطوات عملية، دار السلام، القاهرة، (١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م).

• • •

رقم الإيداع

٢٠١٠/٩٤٧٠

I.S.B.N الترقيم الدولي

978 - 977 - 342 - 888 - 4

الكتاب في سطور

إن مما يشكّل مفردات أزمتنا الثقافية بناءَ الأحكام على الشاذ والنادر، وإسقاط ما للقاعدة المطردة من اعتبار وأهمية. والحديث عن حالة التأزم الفكري في عالمنا الإسلامي تدفعنا إلى التساؤل: هل هذا التأزم عام أم فردي؟ وهل الشعور بالدونية والضعف ناتج عن المقارنة بيننا وبين الغرب؟ وهل من الأفضل لنا أن نقارن حالنا بحالهم أم ننكفئ على أنفسنا انطلاقًا من خصوصيتنا الثقافية؟ وهل نظرة معظم المسلمين إلى طبيعة العقل والذكاء هي نظرة صحيحة أم أنها مصابة بشيء من الغبش والانحراف؟... وأسئلة أخرى كثيرة تحتاج إلى إجابات مقنعة ترفع الحظر عن انطلاق العقل المسلم إلى الطريق الصحيح.

Dar Alsalam Designs

الناشر

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

القاهرة - مصر - ١٢٠ شارع الأزهر - ص.ب ١٦١ الغورية

هاتف: ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ - ٢٥٩٣٢٨٢٠ - ٢٤٠٥٤٦٤٢

فاكس: ٢٢٧٤١٧٥٠ (+٢٠٢)

الإسكندرية - هاتف: ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس: ٥٩٣٢٢٠٤ (+٢٠٣)

www.dar-alsalam.com info@dar-alsalam.com

